زهير بن قيس البلوي

فاتح منطقة مدينة تونس وقائد المعركة الحاسمة في افريقية على البربر

تـأليف

اللواء الركن محمود شيت خطاب

جمع وترتيب : المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي – المجلد 14 – ص 85 – 107

1387هـ - 1967م

زهير بن قيس البلوي [1]

فاتح منطقة مدينة تونس [2] وقائد المعركة الحاسمة [3] في افريقية على البربر

« إنما قدمت للجهاد ، ولم أقدم لحب الدنيا »

« زهير بن قيس البلوي »

اللواء الركن محمود شيت خطاب

نسبه وأيامه الأولى :

هو زهير بن قيس البلوي [4] ، يكنى أبا شدّاد [5] ، يقال له صحبة [6] ، وجزم بعضهم بصحبته ، فقال : « هو من الصحابة [7] » شهد فتح مصر [8] وكان فتحها سنة عشرين

(١) بلي : على وزن علي ، من قضاعة انظر جمهرة أنساب العرب (٤٢٩) ، ومن بطون قضاعة: بلي بن عمرو بن مالك بن إلحاف بن مالك بن قضاعة انظر المنتخب في ذكر قبائل العرب (٤)

(٢) تونس : بالضم ثم السكون والنون تضم وتفتح وتكسر : مدينة كبيرة محدثة بافريقية على ساحل بحر الروم ،عمرت من انقاض قرطاجنة ،وكان اسم تونس في القديم ترشيش،وهي على ميلين من قرطاجنة. انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٣٢/٢) وآثار البلاد واخبار العباد (١٧٣) وتقويم البلدان (١٤٢ ـ ١٤٣) والمسالك والممالك (٣٣)

(٣) المعركة الحاسمة : هي معركة اسحق جيش العدو الذي هو هـدف الحركات الخطير ، وبذلك تستسلم بلاده لعدم وجود قوة ضاربة تدافع عنها

(٤) الاصابة (١٧/٣) وأسد الغابة (٢١١/٢) وتهذيب ابن عساكر (٣٩٣/٥)

(٥) الاصابة (١٧/٣)

(٦) الاصابة (١٧/٣) وأسد الغابة (٢١١/٢) والاستقصا (٧٦/١)

(٧) تهذيب ابن عساكر (٣٩٣/٥)

(٨) الاصابة (١٧/٣).

الهجرية[1] ، ومعنى ذلك أن زهيراً ولد في أيام الرسول ﷺ ، فهو صحابي بالمولد

روى زهير عن جماعة من الصحابة ، وروى عنه جماعة من التابعين [2] ، وقد عـده بعضهم من الصحابة الذين شهدوا فتح مصر [3] فلذلك نال زهير شرف الصحبة ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد ، إذ من الواضح أنه كان صغيراً على عهد النبي ﷺ

جهاده :

١ — شهد زهير فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص ، وغزا « إفريقية » ووليها [4] وفي سنة اثنتين وستين الهجرية رد يزيد بن معاوية عقبة بن نافع الفهري إلى « إفريقية [5] » فاستخلف على « القيروان » زهيراً [6] وترك معه جنداً تعدادهم خمسة آلاف رجل مع الذراري والأموال لإعمار القيروان والمحافظة عليها من الغزاة [7]

٢ — ولما استشهد عقبة بن نافع الفهري في (تَهُوْذَة [8]) سـنة ثلاث وستين الهجرية [9] (٦٨٣ ميلادية) قصد (كسيلة بن لمْزَم) القيروان فى جمع كـثير من

---

(١) ابن الاثير (١/٢١٨) والعبر (١/٢٣) وشذرات الذهب (١/٣١) وابو الفدا (١/١٦٣).

(٢) انظر التفاصيل في الاصابة (٣/١٧) وتهذيب ابن عساكر (٥/٣٩٣)

(٣) رياض النفوس (١/١٦٠) والاستقصا (١/٧٦)

(٤) رياض النفوس (١/١٠)

(٥) رياض النفوس (١/٢٢) والاستقصا (١/٧٢)

(٦) ابن الاثير (٤/٤٢) وفي رياض النفوس (١/٢٢ وفتوح مصر والمغرب (٢٦٧) : إنه استخلف على القيروان عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي

(٧) انظر تاريخ المغرب الكبير (٢/٤٨)

(٨) تهوذة : اسم لقبيلة من البربر ناحية افريقية لهم أرض تعرف بهم انظر معجم البلدان(٢/٤٣٨).

(٩) سير أعلام النبلاء (٣/٣٤٩) والبداية والنهاية (٨/٢١٧) وابن الأثير (٤/٤٣) والاصابة (٥/٨١)

الروم والبربر ،فعزم زهير على القتال فخالفه حَنَش الصنعاني [1] وعاد الى مصر ،فتبعه أكثر الناس ، فاضطر زهير الى العودة معهم ، فسار الى (برْقة [2]) وأقام بها [3]

وقد زحف كسيلة البرنسي الى القيروان سنة اربع وستين الهجرية وانتزعها من يد المسلمين في المحرم [4] ، فعظم البلاء على المسلمين ، فقام زهير بن قيس خطيباً في الناس ، فقال : « يا معشر المسلمين ! إن اصحابكم قد دخلوا الجنة ، وقد منّ الله عليهم بالشهادة ،

---

(١) حنش الصنعانى : هو حنش بن عبد الله بن عمرو بن حنظلة أبو رشيد من صنعا دمشق روى عن فضالة بن عبيد ورويفع بن ثابت وابي هريرة وابى سعيد ، وروى عنه ابنه وقيس بن الحجاج وجماعة غزا المغرب وسكن افريقية وعداده في المصريين وهو تابعي كبير ثقة دخل الاندلس وكان مع علي بن ابى طالب بالكوفة وقدم مصر بعد قتل علي وغزا المغرب والأندلس كان حنش اذا فرغ من عشائه وحوائجه واراد الصلاة من الليل أوقد المصباح وقرب المصحف وإناء فيه ماء ، فكان إذا وجد النعاس استنشق بالماء واذا تمايا في آية نظر في المصحف، وكان اذا جاءه سائل مستطعم لم يزل يصيح باهله : «أطعموا السائل»؛حتى يطعم نزل مصر وما ت سنة مائة الهجرية ، وكان فيمن ثار مع ابن الزبير على عبد الملك ابن مروان ، فأتي به عبد الملك في وثاق فعفا عنه ، وذلك لان عبد الملك حين غزا المغرب مع معاوية بن حديج نزل عليه بأفريقية سنة خمسين الهجرية ، فحفظ له ذلك وكان حنش أول من ولي عشور افريقية في الاسلام ، وكان له عقب بمصر غزا الاندلس مع موسي بن نصير وله بها آثار ويقال إن جامع سرقسطة من ثغور الاندلس من بنائه وأنه أول من اختطه وفي رواية : ان أبا المهاجر دينار بعث حنش الصنعاني الى جزيرة شريك (في إفريقية) فافتتحها ، انظر التفاصيل في تهذيب ابن عساكر (٥/٩—١١) ومعجم البلدان (٥/٣٩٢ — ٣٩٣) والاستقصا (١/١٢) وقد جاء في ابن الاثير (٤/٤٣) : فخالفه جيش الصنعانى .. انتهى ، والصحيح حنش لا جيش كما هو واضح

(٢) برقة : اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وإفريقية ، واسم مدينتها : إنطاباس ، وتفسيره : الخمس مدن انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/١٣٣)

(٣) ابن الاثير (٤/٤٣)

(٤) الاستقصا (١/١٧) وفي فتوح مصر والمغرب (٢٦٩) : « ثم زحف ابن الكاهنة (كسيلة)الى القيروان يريد عمر بن علي وزهير بن قيس ، فقاتلاه قتالا شديداً ، فهزم ابن الكاهنة وقتل اصحابه وخرج عمر بن علي وزهير بن قيس الى مصر لاجتماع ملأ البربر ، وأقام ضعفاء اصحابها ومن كان خرج معها من موالي إفريقية باطرابلس وكان مقتل كسيلة في سنة أربع وستين الهجرية» انتهى.
ومن الواضح أن هذه الرواية مرجوحة ، إذ أن كسيلة هو الذي جمع البربر والروم سنة أربع وستين الهجرية لقتال المسلمين في (القيروان) ،فاذا استطاع المسلمون قتله وقتل اصحابه فلماذا ينسحبون من (القيروان) ؟؟

فاسلكوا سبيلهم يفتح الله لكم دون ذلك » ، فقال حنش الصنعاني : « لا والله ، ما نقبل قولك ، ولا لك علينا ولاية ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين الى مشرقهم »، ثم قال : «يامعشر المسلمين! من أراد منكم القفول الى مشرقه فليتبعني »، فأتبعه الناس ولم يبق مع زهير الا أهل بيته ، فنهض في أثره ولحق بقصره بـ (برقة) ، فأقام بها مرابطاً الى دولة عبد الملك بن مروان وأقبل كسيلة البرنسي بعساكره ، فلما قرب من (القيروان) خرج من كان فيها من العرب هاربين ، إذ لم يكن لهم طاقة بقتاله لعظيم ما اجتمع له من البربر والروم ، فأمّن كسيلة من بقي في القيروان من المسلمين ، وأقام بالقيروان أميراً على سائر إفريقية والمغرب كله وعلى من فيه من المسلمين ، الى أن ولي الخلافة عبد الملك بن مروان [1] ولم يقم بالقيروان من المسلمين إلا أصحاب الذراري والأثقال ، فأمنهم كسيلة وثبت قدمه بالقيروان واستمر أميراً على البربر ومن بقي فيها من العرب واضطرم المغرب ناراً ، وفشت الردة في البربر ، الى أن استقلّ عبد الملك بالخلافة وأذهب آثار الفتنة من المشرق ، فالتفت الى المغرب [2] ليصفي حسابه هناك

وفي رواية، أن زهيراً خليفة عقبة في القيروان ، لما بلغه ما جرى على عقبة ، رعب رعباً شديداً وأراد الأنصراف الى مصر فمنعه أحد أصحابه [3] وقال : « لا تفعل ، فإنها هزيمة الى مصر » ثم برز للعدو فكان أول من برز ، فضرب خباءه ، فلما رأى زهير عزمه عزم معه وكان معه ستة آلاف رجل : ألفان من البربر ، وأربعة آلاف من العرب . وزحف زهير الى كسيلة وقاتله قتالاً شديداً ،فانهزم كسيلة وقتل من إصحابه ما لا يحصى وتفرقوا [4]

والظاهر أن الرواية الأولى هي أصح ، إذ لم يكن بمقدور العرب المسلمين وهم قليلون ،

---

(١) الاستقصا (١/١٨) : وقد ورد في الاستقصا (١/٧٥) في خطاب زهير : « فاسلكوا سبيلهم أو يفتح الله عليكم »

(٢) الاستقصا (١/٧٥)

(٣) منعه ابن حيان الحضرمي انظر رياض النفوس (١/٢٨)

(٤) رياض النفوس (١/٢٨ - ٢٩)

مقاومة كسيلة بعد أن اجتمع عليه الروم والبربر ، وبعد أن ارتفعت معنوياتهم نتيجة لانتصارهم على عقبة بن نافع في (تهوذة) واستشهاده واستشهاد زهاء ثلاثة مائة رجل من أصحابه معه ، خاصة وأن الرجال الذين كانوا مع زهير في القيروان على قلتهم، لم يكونوا من المحاربين المتميزين ، إذ ليس هناك قائد يمكن أن يستغني عن خمسة آلاف أو ستة آلاف ويبقيهم في الخلف وهم من محاربي الدرجة الأولى، بل إن القادة - عادة - يتركون في الخلف وراءهم محاربي الدرجة الثانية من كبار السن ، أو ذوي العاهات أو من غير الشجعان ... الخ ، ومثل هذا الجيش لا يستطيع صد جيش لجب كجيش كسيلة يتمتع بمعنويات عالية فائقة

لذلك انسحب زهير من القيروان الى (برقة) ، وكان قراره هذا صحيحاً من الناحية العسكرية ، لأن اشتباكه مع العدو وهو لا يملك القوة الكافية لاحراز النصر ، يؤدي إلى كارثة عسكرية تحل بجيشه دون مبرر ولا جدوى

٣ — ولما استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة بعد قضائه على الفتن الداخلية ، كان زهير مرابطاً في (برقة) منذ استشهاد عقبة بن نافع الفهرى [1] ، فذكر عند عبد الملك من بالقيروان من المسلمين، وأشار عليه أصحابه بانفاذ الجيوش إلى إفريقية لاستنقاذهم [2] من يد (كسيلة) وأن يعز الاسلام بها كما كان في أيام عقبة ، فقال لهم عبد الملك : « من للأمر مثل عقبة ؟! » ، فاتفق رأيهم ورأي المسلمين على زهير ، وكان من رؤساء العابدين وأشراف المجاهدين ، فوجه اليه عبد الملك وأمره بالخروج على أعنة الخيل فيمن معه من المسلمين لغزو إفريقية ، فسر ذلك زهيراً وسارع الى الجهاد [3]

ولكن زهيراً كتب الى عبد الملك يعلمه بكثرة الروم والبربر [4] ، وبقلة من معه من الرجال والأموال ، فأرسل عبد الملك إلى أشراف العرب ليحشدوا اليه الناس من الشام،

(١) الاستقصا (١/٨١)

(٢) ابن الأثير (٤/٤٣)

(٣) رياض النفوس (١/٢٩)

(٤) الاستقصا (١/٨١)

وأفرغ عليهم أموال مصر ،فسارع الناس الى الجهاد واجتمع منهم خلق عظيم ، فأمرهم أن يلحقوا بزهير . فلما وصلوا اليه خرج بهم الى (إفريقية) فلما دنا من (القيروان) نزل بقرية يقال لها (قَلْشانَة)[1] وذلك في سنة تسع وستين الهجرية ، فبلغ ذلك كسيلة - وكان في خلق عظيم من الروم والبربر ، فدعا كبارهم وأشرافهم ، وشاورهم وقال لهم : « أرى أن ننزل بـ (مَمِس)[2] لئلا يركبنا من بالقيروان فنهلك[3] ، ولأن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ، ونخاف إن قاتلنا زهيراً أن يثب هؤلاء وراءنا ، فاذا نزلنا (ممس) أمناهم وقاتلنا زهيراً ، فان ظفرنا بهم تبعناهم إلى (طرابلس) وقطعنا أثرهم من إفريقية ، وان ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجونا[4] ، كما أن الماء بـ (ممس) كثير » ، فأجابوه إلى ذلك ورحل إلى (ممس) فبلغ ذلك زهيراً ، فلم يدخل القيروان بل أقام ظاهرها ثلاثة أيام حتى أراح واستراح[5]

وفي اليوم الرابع زحف زهير في آلاف من المقاتلة ، وجمع له كسيلة البرانس[6] وسائر البربر ولقيه بـ (ممس) من نواحي القيروان . وأشرف زهير على عسكر كسيلة في آخر النهار ، فأمر الناس بالنزول ، فلما أصبح زحف اليه وأقبل كسيلة ومن معه ، فالتحم الفريقان ونزل الصبر وكثر القتل في الجانبين حتى يئس الناس من الحياة ،ولم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل ومضى الناس في طلب البربر والروم ، فلحقوا كثيراً منهم وقتلوهم وجدُّوا في طلبهم الى وادي (مَلْوِيَة) واد بـ (طنجة) بالمغرب ، وفتح (شِقَّبَنارية)[7]

---

(١) وردت في رياض النفوس (١/ ٣٠) : قرشانة ، ووردت في معجم البلدان (٧/ ١٤٧): قلشانة ، وهي مدينة بافريقية بضواحي القيروان انظر معجم البلدان (٧/ ١٤٧) وهامش رياض النفوس (١/ ٣٠)

(٢) وقد وردت في ابن الأثير (٤/ ٤٣) : ممش ، وهي في الهضبة في الجنوب الشرقي لجبال أوراس في الجزائر الآن

(٣) رياض النفوس (١/ ٣٠) وفي ابن خلدون (٤/ ١٨٧): ان زهيراً زحف سنة سبع وستين

(٤) ابن الأثير (٤/ ٤٣ - ٤٤)

(٥) ابن الأثير (٤/ ٤٤) ورياض النفوس (١/ ٣٠) والبيان المغرب (١/ ٢٠)

(٦) البرانس : قبيلة من البربر

(٧) هي مدينة Sicca Vaneria الرومانية القديمة ، وتسمى الآن : الكف .

وقلاعاً أخر [١] ، وفتح مدينة تونس [٢] وفي هـــذه الوقعـة ذلّ البربر وفنت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم [٣] وقتـــل رجال الـبربر والروم وملوكهم وأشرافهم [٤] وفزع أهل إفريقية واشتد خوفهم ، فلجأوا الى الحصون والقلاع [٥] واضمحل أمر الروم فلم يعد لهم شأن يذكر [٦] وخاف البربر من زهير والعرب خوفاً شـــديداً ، وكسرت شوكة (أوربة) [٧] من بينهم ، واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى ، وملـكوا مدينة (ولِيْـلي) وكانت فيما بين (فاس) و (مكناسة) بجانب جبل (زَرْهُـون) ولم يكن لهم بعد هذه الوقعة ذكر [٨]

لقد كانت معركة (ممس) معركة حاسمة حقاً ، فقد قضى زهير على مقاومة البرانس ، فكان هـــذا القضاء عظيم الأثر في مستقبل الفتوح ، لأن بُتْر [٩] البربر كانوا إلباً مع العرب أنصاراً لهم لانتشار الاسلام فيهم ، وان البرانس من البربر حملوا لواء المقاومة يمدهم الروم بالعون ، فكانت ضربة زهير قاضية على رأس المقاومة وخاتمة لآمال الروم في الاستعانة بأهل البلاد على العرب [١٠]

٤ — وعاد زهير الى (القيروان) ، فرأى بافريقيـة ملـكاً عظيماً ، فأبى أن يقيم بها وقال : « إني ما قدمت إلاّ للجهاد ، وأخاف أن أميل الى الدنيا فأهلك » وكان من رؤساء

---

(١) رياض النفـوس (١/٣٠) وانظر ابن الأثير (٤/٤٤) والبيـان المغرب (١/٢٠) والاستقصا (١/٨١)

(٢) البلاذري (٢٣١)

(٣) الاستقصا (١/٨١)

(٤) ابن الأثير (٤/٤٤)

(٥) البيان المغرب (١/٢٠)

(٦) الاستقصا (١/٨١) وقد وردت كلمة الفرنجة بديلا من كلمة الروم

(٧) قبيلة من قبائل البربر

(٨) الاستقصا (١/٨١)

(٩) قبيلة من البربر

(١٠) فتح العرب للمغرب (٢٣٠)

العابدين وكبار الزاهـدين ، فترك القيروان آمناً وانصرف عنها وأقام بها كثير من أصحابه [1]

ترك القيروان آمنة لخلو البلاد من عدو ذي شوكة ، ورحل في جمع كثير الى مصر ، فبلغ الروم خروجه من (إفريقية) الى (برقـــة) فأمكنهم ما يريدون ، فخرجوا اليها في مراكب كثيرة وقوة عظيمة [2] من القسطنطينية وجزيرة صقلية [3] ، فأغاروا على برقة وأصابوا بها سبياً كثيراً ، وقتلوا ونهبوا ، ووافق ذلك قدوم عسكر زهير ، فأمر عسكره بالمسير الى الساحل طمعاً بأن يدرك سبي المسلمين فيستنقذهم وأشرف على الروم ، فاذا هم خلق عظيم ، فلم يقدر على الرجوع ، واستغاث بــه المسلمون وصاحوا ، والروم يدخلونهم المراكب ، فنادى بأصحابــه : « النزول » ، فنزلوا ، وكان أكثرهم من التابعين ونزل الروم اليهم ، وتلقوهم بعدد عظيم ، فالتحم القتال وتكاثرت عليهم الروم ، فقتل زهير وأشراف من كانوا معه من العرب [4] ، ولم ينج منهم أحد ، وعاد الروم بما غنموا الى القسطنطينية [5]

وفى رواية ، أن الروم بالقسطنطينية عنـــد ما بلغهم مسير زهير من برقة إلى إفريقية لقتال كسيلة ، اغتنموا خلوها فخرجوا اليها في مراكب كثيرة وقوة قوية من جزيرة صقلية ، وأغاروا على برقة ، فأصابوا منها سبياً كثيراً ، وقتلوا ونهبوا ، ووافق ذلك قدوم زهير من إفريقية الى برقة فأخبر الخبر ، فأمر العسكر بالسرعة والجد في قتالهم ورحل هو ومن معه وكان الروم خلقـاً كثيراً ، فلما رآه المسلمون إستغاثوا به ، فلم يمكنه الرجوع وباشر القتال فاشتد الأمر وعظم الخطب وتكاثر الروم عليهم فقتلوا زهيراً وأصحابه ولم ينج منهم

---

(١) انظر ابن الأثير (٤٤/٤) والبيان المغرب (٢٠/١) والاستقصا (٨١/١) ورياض النفوس (٣١/١)

(٢) البيان المغرب (٢١/١)

(٣) ابن الأثير (٤٤/٤)

(٤) البيان المغرب (٢١/١)

(٥) ابن الأثير (٤٤/٤)

أحد ، فعاد الروم بما غنموا الى القسطنطينية [1]

ونحن جديرون أن نتأمل قليلاً هاتين الروايتين : الأولى أن الروم أقدموا على حملتهم حين بلغهم خروج زهير من إفريقية إلى برقة ، والثانية أن الروم أقدموا على حملتهم حين بلغهم خروج زهير من برقة الى افريقية

والفرق بين الروايتين كبير جداً من الناحية العسكرية ، فالرواية الأولى تدلّ على أن الروم اسهدفوا من حملتهم جيش زهير بالدرجة الأولى ، لذلك جرى إنزالهم في برقة لا في الموانئ الافريقية الأخرى وهي على طريق عودته من القيروان إلى مصر لأجل سحق جيش زهير وهوالهدف السوقي (الاستراتيجي) الحيوي في الحرب ، لأن القضاء على الجيش معناه انهاء كل مقاومة معادية

ومما يدلّ على أن خطة الروم كانت ترمي الى القضاء على جيش زهير بالدرجة الأولى، هو تحشيد جيش ضخم من القسطنطينية ومن صقلية في آن واحد، وتوقيت إنزاله في برقة في وقت معين محدد هو موعد وصول جيش زهير إلى تلك المنطقة ، ولو كانت نيات الروم مجرد غارة ولما بذلوا كل هذه الاستعدادات الضخمة في إعداد الخطط الموقوتة وحشد الجيوش الكبيرة ولما أجروا إنزالهم في وقت وصول طلائع جيش زهير إلى برقة أو قبله

أما الرواية الثانية فتدل على أن خطة الروم كانت غارة لجمع الغنائم والأسلاب ، وهذه الغارة لاتحتاج الى تلك الاستعدادات الدقيقة الموقوتة وحشد الجيوش الضخمة

فمن الواضح إذاً ، أن الروم أجروا إنزالهم في برقة ـ مع كل ما ذكرنا من ضخامة الجيوش وضخامة الاستعدادات ، للقضاء على جيش زهير وليفوتوا عليه فرصة نجاحه الكبير في معركة (ممس) وليستعيدوا سلطتهم الكاملة على (إفريقية) ، لذلك فأنّ الرواية الأولى هي المقبولة ، لأنها تتفق هي والواقع الذي جرى فعلاً ، ولأن سير الحوادث يؤيدها من كل الوجوه

---

(١) ابن الأثير (٤٤/٤)

لقد شغل الروم عن إفريقية خلال حملة عقبة الأولى، لأن العرب المسلمين كانوا إذ ذاك يحاصرون القسطنطينية حصارهم الأول الذي بدأ سنة ثمان وأربعين الهجرية واستمر إلى ما بعد سنة خمسين الهجرية، ولبثت الدولة الرومانية بضعة أعوام بعد ذلك تقاسي عقابيل هذه المحنة التي كادت تودي بها، فلم يعد اليها الهدوء الذي يسمح لها بالاهتمام بولاياتها إلا بعد سنة خمس وخمسين الهجرية [1] إذ نشط الروم بعدها نشاطاً مفاجئاً ترجع أسبابه إلى استرجاع الدولة عافيتها بفضل جهود قسطنطين الرابع واصلاحه الديني واجتهاده في وصل ما كان قد وهى من علاقات الدولة مع أملاكها في (إفريقية) وغيرها [2]، وكان انشغال العرب بكسيلة وتوجه اهتمامهم للقضاء عليه فرصة طيبة استطاع فيها الروم أن يشدوا أمرهم ويثبتوا أقدامهم استعداداً لصراع حاسم [3].

فلماذا ارتد زهير عن إفريقية مسرعاً لغير سبب ظاهر بعد انتصاره في (ممس)؟

إن تعليل المراجع لذلك بقولها: إنه خشي الفتنة على نفسه، وكان من العبّاد المخبتين، فقال: «إنما جئت للجهاد في سبيل الله، وأخاف على نفسي أن تميل إلى الدنيا فأهلك» [4]... الخ تعليل ضعيف، لأن الزاهد الورع الذي يخاف على نفسه فتنة الدنيا هو الذي يقيم على الثغور ويرابط في دار الحرب، فاذا فضل على ذلك العودة إلى العواصم والمدن لم يكن ذلك دليلاً على الورع أو بدافعه، بل دليل أمور أخرى وبدافعها [5] فما أسباب عودته مسرعاً؟ الظاهر أن السبب الحقيقي هو وصول معلومات أكيدة إليه عن تحركات جيوش الروم باتجاه برقة، لذلك سارع إلى العودة حتى لا يقطع الروم خطوط مواصلاته أولاً، وحتى يحرمهم انتهاك حرمة المدن الاسلامية ثانياً، خاصة إنه يعرف أن منطقة برقة

(١) فتح العرب للمغرب (١٥٩)
(٢) فتح العرب للمغرب (٢١٣)
(٣) فتح العرب للمغرب (٢١٥)
(٤) الاستقصا (١/٨١)
(٥) فتح العرب للمغرب (٢٢٧)

كانت حينذاك منطقة مكشوفة تقريباً ، لعدم تيسر قوات إسلامية كافية فيها تحميها من غارات الروم بجيوش ضخمة عليها ، وليس معنى ذلك ان تلك المنطقة كانت محرومة تماماً مدافعين عنها ، إذ أن ذلك لا يمكن أن يحدث مطلقاً من الناحية العسكرية ، فلا بد أن يكون فيها عدد مناسب من الرجال لحمايتها من الغارات المحدودة ومن قوات معادية قليلة ، وذلك بمشاغلتهم مدة من الزمن حتى ترد المدافعين النجدات والأمداد ، إذ لا يمكن أن يترك أي قائد أية منطقة على خطوط مواصلاته دون حماية كافية ، ولكن القوة التي تركها في برقة لا ترقى أن تكون كافية في صد جيوش كبيرة ، وهذا ليس خطأ زهير بتاتاً ، إذ ليس بامكانه أن يوزع رجاله بأعداد كبيرة ليكونوا حاميات على طول خطوط مواصلاته التي تمتد إلى قرابة الفي ميل ، وليس هناك قوة كافية لهذا الغرض ، فلم يكن له إلا أن يترك حاميات صغيرة في النقاط السوقية (الاستراتيجية) المهمة لحمايتها من قوات معادية محدودة ولفترة محدودة من الزمن الى أن تردها النجدات والأمداد

ولكن المعلومات التي وردت عليه عن حشود الروم الضخمة باتجاه منطقة برقة ، جعلته يقرر فوراً العودة أدراجه الى تلك المنطقة لمواجهتها بقواته الضاربة ، وفعلاً وصل الى تلك المنطقة فى الوقت المناسب ، ولكنه دحر أمام الروم لأن قواته لم تكن كافية لاحراز الظفر عليها ، بالرغم من إقدام زهير واقدام رجاله على مقاتلة الروم بشجاعة وتضحية وفداء

وهكذا سقط زهير وكثير من رجاله شهداء في ساحة الوغى ، لأن القوتين العربية والرومية لم تكونا متكافئتين ، ولأن العرب كانوا مجهدين من سفرهم الشاق الطويل آلاف الأميال ، ولأن الوقت المتيسر لزهير لم يكن كافياً في إعداد الخطة العسكرية الدقيقة لمقاومة الغزو ولتلقي الأمداد من المشرق ، فاندفع زهير ودفع قواته بمثل تلك الظروف الصعبة بحوافز عاطفية هي تخليص الاسرى المسلمين من أيدي الروم ، فوقعت الكارثة بزهير ورجاله ، فخسروا كل شيء ... إلا الشرف ... ولم يكن بامكانهم ولا بإمكان أى قائد آخر فى مثل

تلك الظروف والأحوال ، أن يفعل غير ما فعله زهير وأصحابه فيلاقي نفس المصير الذي لاقوه

الإنسان :

كان زهير صحابياً ولكننا لا نعلم عن أيامه الأولى شيئاً كثيراً ، وكان ممن لزم عمرو بن العاص ودخل معه دمشق وفي سنة أربع وستين الهجرية كان زهير بمصر فبعثه أميرها [1] الى (أيلة) [2] ليمنع عبدالعزيز بن مروان من المسير اليها ، وكان زهير حينذاك إلى جانب عبدالله بن الزبير على بني أمية ، فهزم زهير ومن معه أمام عبدالعزيز بن مروان [3]

ولعل هذا الحادث ترك أثره في نفس عبدالعزيز بن مروان على زهير ، فقد ندب عبدالعزيز زهيراً إلى (برقة) وكان عبدالعزيز أميراً على مصر مخاطباً زهيراً بشيء ، فأجابه زهير :
« أتقول هذا لرجل جمع ما أنزل الله على نبيه قبل أن يجمع أبواك هذا ؟ » [4]

كان زهير من رؤساء العابدين وأشراف المجاهدين [5] صاحب فضل ودين [6] ، وكان من العباد المخبتين [7] ، وكان من العباد المتفقهين

شهد فتح مصر سنة عشرين الهجرية كما أسلفنا ، فإذا كان عمره يوم [8] شهد فتح مصر زهاء عشرين عاماً ، واستشهد سنة إحدى وسبعين الهجرية (٦٩٠ م) فليس من

---

(١) كان اميرها عبدالرحمن بن عتبة بن إياس الفهري انظر الولاة والقضاة (٤١) وهو المعروف بأبن جحدم

(٢) أيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم (البحر الاحمر) مما يلي الشام وهي آخر الحجاز وأول الشام أنظر التفاصيل في معجم البلدان (١ / ٣٩١)

(٣) الولاة والقضاة (٤٣)

(٤) الاصابة (٣ / ١٧) وانظر تهذيب ابن عساكر (٥ / ٢٩٣)

(٥) رياض النفوس (١ / ٢٩)

(٦) البيان المغرب (١ / ٢١)

(٧) الاستقصا (١ / ٨١)

(٨) تاريخ الفتح العربي في ليبيا نقلا عن المؤنس

المعقول أن يكون عمره حينذاك أكثر من إحدى وسبعين سنة ، وإلا ما استطاع قيـادة الجيوش ومعاناة أمور الحرب وتحمل أعبائها ، لذلك كان من المحتمل أن يكون زهير قـد ولد في السنة الأولى من الهجرة (٦٢٢ م) ، وقد دفن بـ (درنة) [١] قريباً من الشاطيء الذي استشهد فيه ، وقبره وقبور الشهداء الذين سقطوا معه معروفة هناك [٢]

وقد ورد في بعض المصادر أنه استشهد سنة ست وسبعين الهجرية [٣] مع أن خليفته حسان بن النعمان تولى افريقية سنة أربع وسبعين الهجرية [٤] ، فلابد أن حسان بن النعمان تولاها بعد استشهاد زهير لا قبله !

كما ورد في بعض المصادر ، أن زهيراً قتل سنة تسع وستين الهجرية [٥] ، وهذا مردود أيضاً ، لأنه ليس من المعقول أن يتولى زهير إفريقية وهو بـ (برقة) في هذه السنة ، ثم يعدّ جيشه ويتلقى الأمداد ويسير إلى القيروان ويقاتل هناك ويطارد العـــدو ، ثم يعود أدراجه من القيروان إلى (برقة) بعد مكوثه في (القيروان) ردحاً من الزمن ، ويتم كل ذلك خلال سنة واحدة !!!

ولما سمع عبدالملك بن مروان بقتل زهير ، عظم عليه واشتد [٦] ، وكانت مصيبته مثل مصيبة عقبة بن نافع قبله [٧] ، لمكانة زهير السامية في نفوس العرب المسلمين

لقد كان زهير من رجالات السلف الصالح شجاعة وبطولة وايماناً وورعاً

القائد :

نشأ زهير في بيئة عربية خالصة تتسم بالشجاعة والإقدام ، وترعرع في أيام الجهـــاد

(١) درنه : مدينة في ليبيا على ساحل البحر شرقي بنغازي

(٢) معجم البلدان (٤ / ٥٥)

(٣) الاصابة (٣ / ١٧) ومعجم البلدان (٤ / ٥٥)

(٤) ابن الاثير (٤ / ١٤٣)

(٥) ابن الاثير (٤ / ١٤٣)

(٦) ابن الاثير (٤ / ٤٤)

(٧) البيان المغرب (١ / ٢١) ورياض النفوس (١ / ٣١)

الأولى وفي العهد الذهبي للفتح الأسلامي ، وما كاد يشب إلا وانخرط في سلك المجاهدين الفاتحين، فشهد فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص ، ثم شهد فتوح إفريقية ووليها أيضاً

وحين أصبحت مصر بلداً إسلامياً وبدأ الفاتحون يتوغلون غرباً فى إفريقية ، كان زهير مع أولئك الفاتحين وفي سنة ست واربعين الهجرية كان زهير فى جيش عقبة بن نافع ، فاستخلفه عقبة على جيشه بـ (مغداش) [1] وسار بنفسه بمن خف معه لفتح (ودّان)[2] ثم عاد عقبة إلى عسكره بعد خمسة أشهر [3] وفي سنة اثنتين وستين الهجرية استخلفه عقبة على (القيروان) حين يمم شطر المغرب الأقصى إلى المحيط الأطلسي [4] ، كما مر بنا ذلك .

لقد كان زهير من أقرب المقربين إلى عقبة وكان ساعده الأيمن في حروبه وغزواته ، فلا عجب أن تجمع آراء ذوي الرأي من المسلمين على اختياره خلفاً لعقبة في فتح (إفريقية)[5] وأخذ ثارات شهداء (تهوذة) : عقبة واصحابه ، واستنقاذ القيروان ومن بها من المسلمين من يد كسيلة المتغلب عليها [6]

هذه التجربة الطويلة لزهير في إدارة الحروب ومعاناتها ، أفادت المسلمين عند ما أصبح قائداً لجيش إفريقية ، فخاض معركة حاسمة في (ممس) : ذل البربر وفنت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم وقتل رجال البربر والروم وملوكهم واشرافهم ، وفزع أهل إفريقية واشتد خوفهم ، فلجأوا إلى الحصون والقلاع ، واضمحل أمر الروم فلم يعد لهم شأن

(١) مغداش : مدينة قريبة من سرت في طرابلس انظر هامش فتوح مصر والمغرب (٢٦٢)

(٢) ودان : مدينة قديمة من مدن البربر الجنوبية ، تقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس الغرب بنحو (٧٦٩) كم انظر التفاصيل من تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٧)

(٣) انظر التفاصيل في فتوح مصر والمغرب (٢٦٢ ـ ٢٦٤) وفي ترجمة عقبة بن نافع الفهري في قادة فتح المغرب العربي (١/ ٩-١٣٦)

(٤) إبن الاثير (٤ / ٤٣ ـ ٤٤)

(٥) البيان المغرب (١ / ٢٩)

(٦) الاستقصا (١ / ٨١)

يذكر ، وخاف البربر من زهير والعرب خوفاً شديداً ، وكسرت شوكة قبيلة (أوربة) البربرية القوية المتنفذة في إفريقية كما ذكرنا سابقاً

وكان قرار زهير الخاص بمطاردة البربر بعد معركة (ممس) قراراً صائباً جداً يدعو الى التقدير والإعجاب ، ولولا تلك المطاردة التي كانت بتماس شديد بالبربر لاستطاع البربر التسلل الى الجبال والتخلص من الخسائر الفادحة التي لحقت بقواتهم ؛ وكان من نتائج تلك المطاردة الموفقة تفويت الفرصة على البربر للتملص من المعركة الخاسرة الى الجبال ، وهم الذين تركوا القيروان الى (ممس) ليسهل عليهم الإفلات من العرب المسلمين في حالة دحرهم وذلك باللجوء الى الجبال المحيطة بالمنطقة لتقليل خسائرهم في الأرواح والمواد

كما كان قرار زهير في البقاء خارج القيروان وعدم دخولها ، قراراً صائباً حقاً ، لأن دخول المدينة يؤدي الى بعثرة قوات المسلمين للدفاع عنها ، وبذلك تنقلب خطتهم الهجومية على جيش كسيلة إلى خطة دفاعية ، والهجوم وحده لا الدفاع هو الذي يؤدي إلى إحراز الظفر

أما استعداداته لانجاز استحضارات جيشه عَدداً وعُدداً ، فقد بلغت حدّ الروعة : أمره عبدالملك بن مروان بالخروج على أعنّة الخيل فيمن معه من المسلمين لغزو إفريقية ، فكتب إلى عبدالملك يخبره بقلة من معه من الرجال والأموال ، فأرسل عبدالملك إلى أشراف العرب ليحشدوا اليه الناس من الشام ، وأفرغ عليهم أموال مصر [1] ، وبذلك طبق زهير مبدأ (التحشد) و (الأمور الأدارية) على أحسن وجه

ولكنّ زهيراً أخطأ في اصطدامه مع قوات الروم في منطقة (برقة) دون أن يتّخذ كلّ الإجراءات اللازمة لضمان نجاح هذا الاصطدام ، فمن الواضح أنه اصطدم مع الروم وهو بقوات قليلة هي قواته المتقدمة الخفيفة ، فقد عدل هو إلى الساحل في خيل يسيرة [2]

---

(١) رياض النفوس (١ / ٢٩)

(٢) معالم الايمان (١ / ٥٤) وفي رياض النفوس (١/ ٢١) أنه عدل إلى الساحل بقوات كثيرة

فوجد اسطول الروم من قبل قيصر وبأيديهم أسرى من المسلمين ، فاستغاثوا به وهو في خف من أصحابه ، فصمد اليهم فيمن معه وقاتل الروم حتى قتل ، وقتل معه جماعة من أشراف أصحابه [١] ، فلما رآه المسلمون استغاثوا به فلم يمكنه الرجوع ، وباشروا القتال [٢] ... وهذا يدل على أن الفرسان الذين معه كانوا قليلي العدد ، وأنهم جماعة متقدمة واجبها الإستطلاع فقط لا القتال ؛ ولكنه أنشب القتال خضوعاً لموجة عاطفية عارمة بورط بتأثيرها هو وأصحابه في قتال غير متوقع في وقت ومكان غير مناسبين ، وكان عليه أن يكبح جماح عاطفته ، إذ ليس في إعداد الخطط العسكرية مجال للامور العاطفية ، ويجمع رجاله كافة ، ويستفيد من كل مقاتل متيسر ، ويعدّ الخطة المناسبة للقتال ، ويهيء الأمور الادارية لقواته ، ثم يختار هو الوقت والمكان المناسبين لمهاجمة الروم.. عند ذاك تكون فرص نجاحه متهيئة ، ويكون قد أعدّ كل متطلبات القتال قبل نشوبه

وعلى كل فإن العاطفة الدينية المتأججة حينذاك ورؤية الرجال والاطفال والنساء أسرى يقادون قسراً الى سفن الروم ، أدى الى تحمس رجاله وإقدامهم دون تدبر وتقدير الى مهاجمة الروم دون خطة مناسبة ولا قوات كافية ، وذلك مما أدى الى تورط قواته وتورطه هو نفسه في معركة خاسرة دفع هو ورجاله حياتهم الغالية ثمناً لها

وربما يتبادر الى الاذهان السؤال الآتي : كيف نوفق بين معرفة زهير بوجود قوات الروم في تلك المنطقة ، وكان ذلك من أهم اسباب عودته من (القيروان) إلى (برقة) ، وإقدامه على التقدم الى تلك القوات على رأس قلة من الفرسان فتورط في معركة خاسرة ، ولماذا لم يتدخل القسم الأكبر من جيشه في تلك المعركة اثناء نشوبها لإنقاذ زهير وفرسانه ، ولماذا لم يأخذ ذلك الجيش بثأره ـ على الأقل ـ بعد استشهاده واستشهاد فرسانه معه !؟

وأبادر الى الجواب ، بأن مثل هذا السؤال قد يتبادر الى غير العسكريين ، أما

(١) الاستقصا (١ / ٨١)

(٢) ابن الاثير (٤ / ٤٤)

العسكريون الذين خاضوا غمار الحروب واصطلوا بنارها فيقدرون أن ما حدث أمر طبيعي جداً بسبب ظروف الحرب غير الاعتيادية التي قد تفرط أحياناً من أيدي قادتها فتسير وتتطور على غير ما يشتهون

وإلى أولئك الذين يتبادر الى اذهانهم مثل هذا السؤال من المدنيين ، والى العسكريين النظريين غير المجربين ، أسوق هذا الجواب

لست أشك أن حامية منطقة (برقة) التي خلفها زهير وراءه لحماية تلك المنطقة من العدو ولحماية خطوط مواصلاته ، لا يمكن ان تكون في ظلام دامس بعيدة عن الأحداث لا تهتم بالحصول على المعلومات عن نيات العدو المتربص بها ، فلا بد أن يكون لها مصادر مختلفة مهمتها الحصول على المعلومات عن العدو من البربر والروم : دوريات إستطلاعية برية وبحرية، ومراكب تمخر عباب البحر، وعيون وأرصاد في مختلف الأماكن والأصقاع بل إذا حصل كل عربي مسلم وكل مسلم مسؤولاً كان أو غير مسؤول على معلومات مفيدة عن العدو ، فانه يرى نفسه مسؤولاً عند الله وعقيدته وقومه عن إيصال تلك المعلومات الى المسؤولين بأسرع وقت وبأسرع وسيلة

هذه الحامية الساهرة لمصالح المسلمين المرابطة دفاعاً عن أرواحهم وأرضهم وكرامتهم وعزهم ، أنذرت زهيراً ـ على اعتباره المسؤول الأول عن إفريقية ـ بتحركات الروم من القسطنطينية ومن صقلية ، وقد تكون هذه المعلومات ـ خاصة عن تحركات الروم من القسطنطينية ـ وصلت اليها من المشرق أو حصلت عليها بوسائلها الخاصة أو حصل عليها زهير بوسائله الخاصة ، فعاد زهير بقواته الضاربة لحماية منطقة برقة المهددة بقوات الروم ، ثم تقدم زهير على رأس قطعاته الراكبة التي حرص على قيادتها بنفسه ـ وهذا من مميزات القائد المتميِّز ، إذ يكون دائماً في الأمام قريباً من مواطن الخطر ـ تقدم بنفسه لاستطلاع مواضع انزال الروم ، ومعرفة قوتهم وتسليحهم ، وذلك لإعداد الخطة المناسبة لمقاومتهم ، ولكنه ـ على ما يظهر ـ فوجىء بالمسلمين يقادون قسراً وهم أسرى الى مراكب الروم ،

فاستغاث به هؤلاء ، فتورطت جماعة من رجاله خضوعاً لعاطفتهم المتأججة في الأشتباك مع الروم دون خطة مدبرة ولا استعداد مسبق لخوض المعركة فكانت الكارثة التي لحقت بزهير وبفرسانه الأبطال

أما لماذا لم ينجدهم رجالهم الذين يتقدمون باتجاه العدو ، فمن المحتمل أن يكونوا بعيدين عن ساحة المعركة ، ومن المحتمل أنهم لم يكونوا بعيدين ولكنهم وصلوا الى ساحة المعركة بعدفوات الوقت المناسب ، ففتّ استشهاد قائدهم في أعضادهم وأصبحوا بغير قيادة فانهارت معنوياتهم ، ولا قيمة لجيش بغير قيادة ولا معنويات

ومن المعلوم أن المعارك الحربية في العصور القديمة قبل إختراع البارود وقبل إختراع الأسلحة الحديثة ، يتقرر مصيرها خلال ساعات قليلة ، وقد يكون إستشهاد القائد وحده هو العامل المهم في الهزيمة

ترى ! هل نلقي اللوم كله على زهير في تورطه بالاشتباك مع الروم دون استعداد كاف وفى وقت ومكان غير مناسبين ؟!

إن ظروف الحرب ظروف غير اعتيادية ، وشتان ما بين من يجلس الى مكتبه ليدرس معركة من المعارك فيقرر وهو آمن مستريح : هذا صحيح وهذا خطأ ، وهذا أصاب وهذا أخطأ ، وبين من يعاني ويلات الحرب ويصطلي بنارها

إن سير الحوادث في الحرب قد يكون تياراً عارماً يجرف القائد دون ارادة منه ويجرف من معه من الرجال

هكذا كانت خاتمة حياة زهير ، إذ استشهد استشهاداً لايقل روعة وجلالاً عن استشهاد عقبة بن نافع الفهري ، فأثار مصرعه ثائرة العرب المسلمين ، وحفزهم إلى مواصلة الفتح لإدراك ثأر زهير وأصحابه.وقد يكون لمقتله على يد الروم أثر عظيم في سير الفتوح، إذ كان زهير قد حسب ـ بعد قتله كسيلة ـ ان كل مقاومة للبلاد قد خمدت وأن البلاد أصبحت آمنة مطمئنة ، فكان مقتل زهير منبهاً للعرب إلى ما ينجم عن ترك الروم من خطر ، والى

ما يمكن أن يسببوه للعرب من المتاعب إذا تركوا في مدائن الساحل يستعيدون ما ضاع من قوتهم ، ويستمدون العون من بيزنطة نفسها وكما كان مصرع عقبة محدداً لمهمة زهير ، كان مقتل زهير محدداً لمهمة حسان بن النعمان ـ من بعده ـ فانفق ما قدر عليه من جهد في القضاء على الروم ، حتى تمكن من ذلك تماماً [1]

وهكذا كانت حياة زهير الغالية بركة على المسلمين عامةوعلى فتح إفريقية خاصة ، وكانت خاتمة حياته المشرفة ، بركة على المسلمين عامة وعلى فتح إفريقية خاصة

لقد كان من نتائج استشهاده تكامل الفتح الاسلامي في افريقية ، فأصبحت تلك البلاد اسلامية كما هو الحال في مصر وأرض الشام والعراق وغيرها من البلاد ، وأصبح الفتح الاسلامي في إفريقية فتحاً مستداماً كما هو الحال في تلك الاقطار

لقد كان زهير مجاهداً قائداً ، يتسم بكل ما يتسم به المؤمن بالجهاد من مزايا التضحية والفداء من أجل إعلاء كلمة الله ، وهو كما قال: « إنما قدمت للجهاد ولم أقدم لحب الدنيا » [2] ، ولعل إيمانه العميق بالجهاد حبب اليه الاستشهاد وجعله يستأثر بالخطر دون أصحابه ، فيكون دائماً قريباً من مواطن الخطر طلباً لما عند الله من أجر للشهداء ، وكان يحب رجاله ويحبونه ويثق بهم ويثقون به لما كان يتمتع به من ماض مجيد في الجهاد وكان ذا تجربة طويلة عملية للحروب ، مارسها منذ قدر على حمل السلاح حتى يوم استشهاده ، فكان مجاهداً من المهد الى اللحد كما يقولون

وكان في حروبه يطبق مبدأ (التحشد) ومبدأ (التعرض) ومبدأ (الأمور الادارية) ، فكانت استعداداته للقتال ممتازة حقاً

لقد كان من أولئك الذين نذروا أنفسهم لعقيدتهم ، فسقط أخيراً في ساحات القتال دون ان يسقط السيف من يده

---

(١) فتح العرب للمغرب (٢٢٩ ـ ٢٣٠)

(٢) رياض النفوس (١/ ٣)

زهير في التاريخ :

يذكر التاريخ لزهير استنقاذه القيروان ومن بها من المسلمين من يد كسيلة المتغلب عليها.

ويذكر له ، أنه كان نعم المطالب بدم عقبة بن نافع الفهري ، وهو الذي أخذ ثأر عقبة من قاتله كسيلة ، فهو الذي قتل كسيلة وقتل عدداً ضخماً من رجاله وفرسانه ورجال حلفائه الروم وفرسانهم

ويذكر له أنه انتصر في معركة حاسمة على البربر في (ممس) ، ففزع منه أهل إفريقية واشتد خوفهم فلجأوا الى الحصون والقلاع

ويذكر له أنه ضحى بنفسه من أجل عقيدته ، ولم يضح بعقيدته من اجل نفسه

رضي الله عن الصحابي الجليل ، التقي النقي ، المؤمن الورع ، البطل الشهيد ، القائد الفاتح ، زهير بن قيس البلوي

محمود شيت خطاب

المصادر

ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي) :

١ — الحلة السيراء ـ تحقيق الدكتور حسين مؤنس ـ القاهرة ـ ١٩٦٣ م.

ابن أبي دينار (محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني) :

٢ — المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ـ تونس ـ ١٢٨٠ هـ

ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الأثير الجزري الملقب بعز الدين) :

٣ — أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ طهران ـ ١٣٧٧ هـ

٤ — الكامل في التاريخ ـ القاهرة ـ ١٣٠٣ هـ

ابن حجر (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي الكناني العسقلاني) :

٥ — الأصابة في تمييز الصحابة ـ القاهرة ـ ١٣٢٥ هـ .

ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي) :

٦ — جمهرة أنساب العرب ـ تحقيق وتعليق عبد السلام هارون ـ القاهرة ـ ١٣٨٢ هـ

ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله المعروف بابن خرداذبة) :

٧ — المسالك والممالك ـ أعادت مكتبة المثنى طبعه فى طهران ـ ١٩٦٣ م

ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون) :

٨ — العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ بولاق ـ ١٢٨٤ هـ

ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر) :

٩ — الأستيعاب في معرفة الاصحاب ـ تحقيق محمد علي البجاوي ـ القاهرة .

ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم) :

١٠ — فتوح مصر والمغرب ـ نشر شارل توري (Torry) ـ لايدن ـ ١٩٢٠ م .

ابن عذارى (أبو عبد الله محمد بن عذارى المراكشي) :

١١ — البيان المغرب في أخبار المغرب ـ بيروت

ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن عساكر الشافعي) :

١٢ — التاريخ الكبير (تهذيب ابن عساكر) ـ دمشق ـ ١٣٢٩ هـ

ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن ابراهيم الهمذاني) :

١٣ — مختصر كتاب البلدان ـ لايدن ـ ١٨٨٥ هـ

ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي) :

١٤ — البداية والنهاية في التاريخ ـ القاهرة

أبو الفدا (اسماعيل بن عماد الدين صاحب حماة) :

١٥ — تقويم البلدان ـ باريس ـ ١٨٤٠ م

الأصطخري (أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي) :

١٦ — المسالك والممالك ـ تحقيق محمد جابر عبدالعال الحسيني ـ القاهرة ـ ١٣٨١ هـ

الباجي (أبو عبد الله محمد الباجي المسعودي) :

١٧ — الخلاصة النقية في أمراء إفريقية ـ تونس ـ ١٣٢٣ هـ

البشاري (المقدسي المعروف بالبشاري) :

١٨ — أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ لايدن ـ ١٩٠٦ م

البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري) :

١٩ — المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ـ طبع دي سلان (De SLAN) ـ الجزائر ـ ١٩١١ م

البلاذري (أحمد بن يحيي بن جابر البلاذري)

٢٠ — فتوح البلدان ـ القاهرة ـ ١٩٥٩ م

الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحيّ بن العماد الحنبلي) :

٢١ — شذرات الذهب في أخبار من ذهب ـ القاهرة ـ ١٣٥٠ هـ .
الدباغ (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري) :
٢٢ — معالم الأيمان ـ تونس ـ ١٩٢٠ م
الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن بن عثمان الذّهبي) :
٢٣ — سير اعلام النبلاء ـ تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ـ القاهرة
٢٤ — العبر ـ تحقيق فؤاد سيد ـ الكويت ـ ١٩٦١ م
السّلاوي (أحمد بن خالد الناصري السّلاوي) :
٢٥ — الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ـ الدار البيضاء ـ ١٩٥٤ م
القزويني (زكريا بن محمد القزويني) :
٢٦ — آثار البلاد وأخبار العباذ ـ بيروت ـ ١٣٨٠ هـ
الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف الكندي) :
٢٧ — كتاب الولاة والقضاة ـ لايدن ـ ١٩١٢ م
المالكي (أبو عبد الله بن أبي عبد الله) :
٢٨ — رياض النفوس ـ نشر وتحقيق الدكتور حسين مؤنس ـ القاهرة ـ ١٩٥١ م
ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي) :
٢٩ — المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ـ لايدن ـ ١٨٤٦ م
٣٠ — معجم البلدان ـ القاهرة ـ ١٣١٣ هـ .

المراجع

حسين مؤنس (الدكتور) :
١ — فتح العرب للمغرب ـ القاهرة
الزّاوي (الطاهر أحمد الزاوي) :
٢ — تاريخ الفتح العربي في ليبيا ـ القاهرة ـ ١٣٧٣ هـ
محمد علي دبوز :
٣ — تاريخ المغرب العربي الكبير ـ القاهرة ـ ١٣٨٤ هـ



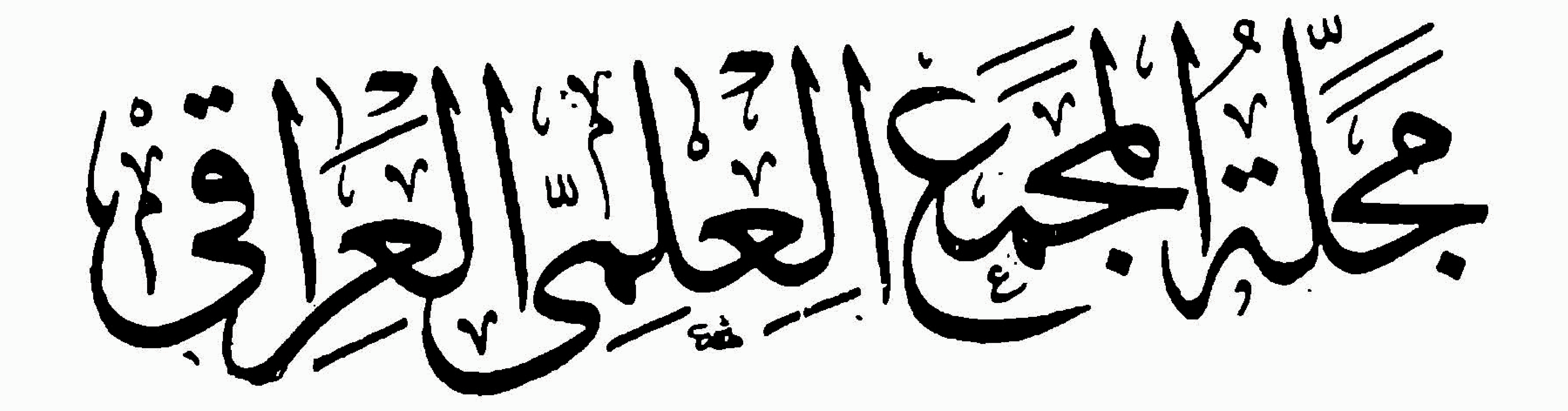
المجلد الرابع عشر

(١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م)



مطبعة المجمع العلمي العراقي

١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م



المجلد الرابع عشر

(١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م)



مطبعة المجمع العلمي العراقي

١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م



مصادر دراسة خطط بغداد

في العصور العباسية

الدكتور صالح احمد العلي

من الحقائق التي تصل الى مستوى البديهيات ان المدن هي المراكز الرئيسة التي تزدهر فيها الحضارة وتتعقد فيها النظم وتنمو فيها الحركة الفكرية ، وتتوفر فيها بصورة خاصة الوثائق المكتوبة عن نشاط الانسان الاجتماعي الذي هو موضوع دراسة التاريخ ، وقد ادى هذا الى ان يكون التاريخ المألوف عندنا هو في الحقيقة تاريخ المدن ووصف فعاليات اهلها بالدرجة الاولى ، واننا عندما نتحدث عن التقدم العلمي العظيم في العصر العباسي فنحن نقصد ما كان في المدن ، دون الريف او الصحارى التي كانت تغط في غياهب الجهل فدراسة تكوين المدن وتطورها يمكننا من التعمق في تفاصيل التنظيم الاجتماعي والاداري والجوانب الاخرى من نشاط الانسان ، ويقدم لنا اساساً ادق واوضح في معرفة الاحداث التاريخية

ولعل الخطوة الاولى لتفهم تنظيم اية مدينة والحياة فيها هو دراسة خططها ، لان هذه الدراسة لها اهمية كبرى في اشباع غريزة حب الاستطلاع وتوفير اللذة التي تنبعث من الكشف عن المجهول وتوسيع افق المعرفة وخاصة لمن يقيم في تلك المدينة او يهم بها ، غير ان اهميتها تمتد الى ابعد من ذلك ، فهي تقدم مادة اساسية لمن يريد دراسة توزيع

السكان واحوالهم البشرية والاجتماعية والاقتصادية ، وتوضح بعض ما يؤثر في العلاقات بينهم ، وتفسر بعض عوامل ظهور التنظيمات الادارية كما تقدم تفسيرات لكثير من الحوادث السياسية والوقائع العسكرية

غير أن دراسة خطط المدن ليست سهلة او يسيرة ؛ لان مناطق السكنى والبيوت تتبدل بتغير الازمان والاحوال ، بل حتى العوارض الطبيعية معرضة لمثل هذا التبدل ، حيث ان الانهار والقنوات والترع قد تبدل مجاريها ، وقد تختفى التلول والمرتفعات او قد تتكون على مر الايام في المدن تلول من تكدس الانقاض ثم ان التكوين الاجتماعي والاقتصادي لاية مدينة يتبدل بمرور الزمن ، ويرافقه تبدل الخطط ويلاحظ ان الحفريات الاثرية بالرغم من فائدتها القصوى في تعيين مجاري الترع والانهار ، وتبيين امتداد الشوارع ، وتوضيح اتساع المدن ، الا انه لا يزال الاعتماد الاول في معرفة اسماء الخطط على المصادر الادبية التي كثيراً ما تستعمل تعبيرات غير محددة ، كالشارع والطريق والدرب ، فضلا عن انها كثيراً ماتذكر اماكن دون تحديد سعتها او حجمها ، هذا بالاضافة الى ان هذه المصادر الادبية وخاصة المتأخرة منها ، قلما تعين تاريخ ظهور او اختفاء اية خطة ولما كانت المدن معرضة للتطور والتبدل تبعاً لتبدل الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فان الباحث الحصيف لا بد له من الحذر والتدقيق عند دراسة هذه المصادر الادبية

ولدراسة خطط بغداد اهمية خاصة في فهم الحضارة الاسلامية ، نظراً لكونها ظلت عاصمة الدولة العباسية كانت خلالها موئل الحركة الفكرية ، ومقصد العلماء والادباء والمفكرين ، ومركز الحياة الاقتصادية ؛ وقد عبر اليعقوبي عن ذلك اوضح تعبير بقوله إن اهل بغداد « فضلوا الناس في العلم والفهم والادب والنظر والتمييز والتجارات والصناعات والمكاسب والحذق بكل مناظرة ، واحكام كل مهنة ، واتقان كل صناعة ، فليس عالم اعلم من عالمهم ولا اروى من راويهم ولا اجدل من متكلمهم ، ولا اعرب من نحويهم ، ولا اصح من قارئهم ، ولا امهر من متطببهم ، ولا احذق من مغنيهم ، ولا الطف من صانعهم ،

ولا اكتب من كاتبهم ، ولا ابين من منطيقهم ، ولا اعبد من عابدهم ، ولا اورع من زاهدهم ، ولا افقه من حاكمهم ، ولا اخطب من خطيبهم ، ولا اشعر من شاعرهم ، ولا افتك من ماجنهم » (البلدان ٢٣٥)

ومن ابرز خصائص بغداد تنوع سكانها وتعدد اصولهم ، وهنا ننقل عن اليعقوبي قوله عن بغداد انها « المدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الارض ومغاربها سعة وكبراً وعمارة وكثرة مياه وصحة هواء ، ولانه سكنها من اصناف الناس واهل الامصار والكور ، وانتقل اليها من جميع البلدان القاصية والدانية ، وآثرها جميع اهل الافاق على اوطانهم ، فليس من اهل بلد إلا ولهم فيها محلة ومتجر ومتصرف ، فاجتمع بها ما ليس في مدينة فى الدنيا ، ثم يجري في حافتيها النهران الاعظمان دجلة والفرات ، فيأتيها التجارات والمير براً وبحراً بايسر السعي حتى تكامل بها كل متجر يحمل من المشرق والمغرب من ارض الاسلام وغير ارض الاسلام ، فانه يحمل اليها من الهند والسند والصين والتبت والترك والديلم والخزر والحبشة وسائر البلدان ، حتى يكون بها من تجارات البلدان اكثر مما في تلك البلدان التي خرجت التجارات منها ويكون مع ذلك أوجد وامكن » (البلدان ٢٣٣ ـ ٤)

ومن المعلوم ان بغداد منشأة في ارض سهلة مستوية تقل فيها العوارض الطبيعية ويتعرض مجرى دجلة والقنوات الاخرى فيها إلى تبدلات كثيرة ، ثم ان بغداد مرت بتطورات سياسية واقتصادية واجتماعية خطيرة كان لها اثر في تبدل احوالها وتغير اوضاعها ؛ وقد ظهرت اثار هذه التطورات منذ وقت مبكر حتى ان اليعقوبي بعد أن وصف خطط بغداد فى عهد المنصور عقب على ذلك بقوله « وقد تغيرت ومات المتقدمون من اصحابها ، وملكها قوم بعد قوم ، وجيل بعد جيل ، وزادت عمارة بعض المواضع ، وملك قوم ديار قوم ، وانتقل الوجوه والجلة والقواد واهل النباهة من سائر الناس مع المعتصم الى سر من رأى في سنة ثلاث وعشرين ومائتين » (ص٢٥٤) فاذا كان مثل هذا التطور قد حدث

في اول قرن مضى على تأسيسها ، فان تطورات وتبدلات اوسع حدثت في القرون التالية التي مرت بغداد فيها

فاذا كانت لدراسة خطط بغداد اهمية كبيرة ، فان على الباحث الاهتمام بالتطور التاريخي لهذه الخطط ، وتحديد اماكنها وخططها في زمن معين ، لان الخطط تتطور ، فتتسع او تضيق، او تتبدل فيها مواضع الاسواق، ومراكز اللهو اوالسكنى؛ فلا بد لهذه الدراسة من تحديد زمن المصدر او الكتاب الذي يصف خطط المدينة ، وبيان ان وصف الخطط في ذلك المصدر ينطبق على زمن المؤلف ، وتمييز ذلك عما نقله ممن سبقه فاذا كانت وفرة مادة المصدر او الكتاب مهمة ، فان معرفة الزمن الذي ينطبق عليه هذا الوصف لا يقل اهمية عن ذلك ؛ ولهذا الامر اهمية بالغة في دراسة خطط بغداد ، التي مرت بادوار من التوسع والتقلص بالرغم من اهميتها الكبرى وجدير بنا ان نشير قبل بحث مصادر دراسة خطط بغداد ، الى ان المؤلفين العرب والمسلمين اهتموا بدراسة المدن واحوالها واكثروا من التأليف فيها ، حتى انك قلما تجد مدينة في العالم الاسلامي لم يؤلف فيها كتاب او اكثر ، ولا ريب ان بحث اسماء المؤلفات في المدن الاسلامية خارج عن الصدد ، ويمكن لمحب الاستزادة الرجوع الى ما ذكره السخاوي في « الاعلان بالتوبيخ » او الى بحث روزنثال فى « علم التاريخ عند المسلمين » ؛ ولكننا نكتفي بالاشارة هنا الى ان المؤلفين الاولين في المدن اهتموا بوصف خطط المدن التي يبحثونها ، وسكانها ، واحوالها البشرية والاجتماعية ، واوضاعها الادارية والاقتصادية ، اما المتأخرون فقد اهتموا بذكر اسماء او تراجم العلماء الذين ظهروا اوعاشوا او مروا بالمدينة التي يبحثونها كما ان حظ المدن الاسلامية من التأليف لم يكن واحداً ولا متناسباً دائماً مع اهمية المدينة فقد الفت عدة كتب عن بعض مدن قليلة الاهمية ، ولم يؤلف الا كتب قليلة جداً عن بعض المدن المهمة

ان المؤلفات التي كتبت عن بغداد لا تتناسب مع اهميتها العظيمة في تاريخ الحضارة الاسلامية

فابن النديم الذي الف كتابه العظيم « الفهرست » في سنة ٣٧٨ واستوعب فيه كل المؤلفات العربية تقريباً ، لم يذكر عن بغداد الا ثلاثة كتب هي بغداد واخبارها لاحمد بن الطيب السرخسي (ص ٣٦٦) وفضائل بغداد وصفتها ليزدجرد بن مهمندار (ص ١٨٥) وكتاب بغداد لطيفور وما زاده عليه عبد الله (ص ٢٠٩ ـ ٢١٠) اماالسخاوي فانه في كتابه « الاعلان بالتوبيخ » الذي استعرض فيه المؤلفات العربية في التاريخ حتى عصره فانه يذكر ان المؤلفات عن « بغداد لاحمد بن ابي طاهر ، ولابن اسفنديار ، وللخطيب ابي بكر وهو اوسعها في عشر مجلدات وعليه معول من بعده ، وذيوله لابي سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني .. الخ » (س ٦٢٢ ط روزنثال) اما حاجي خليفة فيذكر « قيل اول من صنف لها تاريخاً احمد بن ابي طاهر البغدادي ، وتلاه الامام الحافظ ابو بكر احمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ » ثم يصف كتاب الخطيب ويذكر ما الف عليه من ذيول تكون قائمة لا تضيف الى ما اورده السخاوي ، مما يدل على اقتباسه من السخاوي غير انه يضيف الى آخر القائمة « ومختصر تاريخ بغداد لابي اليمن مسعود بن محمد البخاري المتوفى سنة ٤٦١ ؛ وصنف ابو سهل يزدجرد بن مهبنداد الكسروي كتاباً حسناً في وصف بغداد وعدد سككها وحماماتها وما يحتاج اليه في كل يوم من الاقوات والاموال ذكره الصفدي وفي اخباره كتاب التبيان لاحمد بن محمد بن خالد البرقي الكاتب » (كشف الظنون ١/٢٨٨)

يتبين مما ذكر ان ابرز المؤلفين المسلمين في تاريخ التاريخ عند المسلمين يرون ان احمد ابن ابي طاهر طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ هـ هو اقدم من الف في تاريخ بغداد وقد وصف القفطي اهمية هذا الكتاب بقوله « واذا اردت التاريخ متصلا جميلا فعليك بكتاب ابي جعفر الطبري رضي الله عنه فانه من اول العالم الى سنة ٣٠٩ ومتى شئت ان تقرن به كتاب احمد بن طاهر وولده عبيد فنعم ما تفعل لانهما قد بالغا في ذكر الدولة العباسية واتيا من شرح الاحوال بما لم يأت به الطبري بمفرده ، وهما في الانتهاء قريبا المدة » (اخبار الحكماء ص ١١٠)

لقد بقيت من كتاب طيفور قطعة تتناول الاحداث في زمن المأمون بين سنتى ٢٠٤ ـ ٢١٨ هـ ، طبعها كيلر مع مقدمة تحليلية في تبيان اهمية معلوماتها ومقارنة هذه المعلومات بما ذكره الطبري الذى لم يشر الى طيفور وقد اعاد طبع هذه القطعة السيد عزت العطار الحسني سنة ١٩٤٩ وتبين هذه القطعة المطبوعة ان المؤلف دون الحوادث السياسية وقد اورد روزنثال في كتابه « علم التاريخ عند المسلمين » من نقل عنه ؛ ويتبين منها ان معظم النقول تتناول الحوادث السياسية

ويبدو ان طيفور ضمن كتابه وصفاً لخطط بغداد ، لأن الحميدي يذكر ان احمد بن محمد ابن موسى الرازي « الف في صفة قرطبة وخططها ومنازل العظماء بها ، كتاباً على نحو ما بدأ به احمد بن ابي طاهر في اخبار بغداد وذكره لمنازل صحابة المنصور بها » (جذوة المقتبس ص ٩٧ طبعة محمد بن تاويت) غير ان المؤرخين المتأخرين لم يعنوا بذكر ما نقلوه عن احمد بن ابي طاهر ، فياقوت لم ينقل عنه الا في اربعة مواضع لا علاقة لها بالخطط ، اما الخطيب فقد نقل عنه في القسم الخاص بالخطط من الجزء الاول ، خمسة نصوص (٨٤/١ ، ٨٨ ، ١١٧ ، ١٢٠) منها روايتان غير مسندتين (١١٧/١) اما الثلاث الباقية فقد رواها عن طريق محمد بن علي بن مخلد (٨٨ ، ١٢٠) وعن طريق محمد بن خلف عن محمد بن موسى بن الفرات وهذه الروايات عن مربعة ابي العباس وعن بادوريا ، وعن مساحة بغداد ، وذرع بغداد ، وحماماتها ولعل هذه الكتب وغيرها نقلت عن طيفور نصوصاً اخرى دون ان تشير الى مصدرها

اما احمد بن الطيب السرخسي (ت ٢٨٦ هـ) فهو تلميذ الكندي وقد الف عدداً كبيراً من الكتب جمع روزنثال الاشارات اليها والنقول عنها في كتاب الفه عن السرخسي ونشره في نيوهافن سنة ١٩٤٣ ، وقد ذكر اشارات ابن النديم ، وابن القفطي ، وحاجي خليفة الى كتاب السرخسي غير اننا لا نعلم احداً غير ابن الفقيه نقل عنه شيئاً عن خطط بغداد .

اما يزدجرد بن مهمندار فقد ذكر كتابه ابن النديم وحاجي خليفة ونقل عنه التنوخي

في نشوار المحاضرة (١/٦٤ ـ ٦٥) كما نقل عنه ياقوت في معجمه في موضعين (١/٤٤٨ ، ٤/٤٤٥ـ٦) وقد جمع السيد ميخائيل عواد النصوص التي نقلاها عنه في بحث نشره في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (المجلد ١٩ سنة ١٩٤٤) ثم اعاد طبع البحث مرتين وتشمل هذه النصوص كلاماً عن المدائن ، وعن بابل ، وعن حمامات بغداد ، واذا كانت النصوص المتعلقة بحمامات بغداد مأخوذة عن كتابه « فضائل بغداد » فاننا لا نستطيع الجزم في اسم كتابه الذي نقلت منه نصوص المدائن وبابل

اما كتاب التبيان لاحمد بن خالد البرقي الكاتب الذي ذكره حاجي خليفة من ضمن الكتب التي تتحدث عن بغداد (كشف الظنون ١/٢٨٨) وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب هذا الكتاب ضمن كتب التاريخ التي اعتمد عليها (١ / ١٩ طبعةباريس) دون ان يشير الى محتواه . وقد فقد هذا الكتاب ولم نعثر على نص منقول منه ، ولانعلم اذا كان كتاباً قائماً بذاته ام هو نفس كتاب « البلدان والمساحة » كما يبدو لاغابزرك (انظر الذريعة ج ٢ ص ١١٥ ، ٢٢٦) وما اذا كان قد تناول بحث خطط بغداد.

لقد اشارت كتب التاريخ والتراجم الى بعض خطط بغداد في معرض الكلام عن الاحداث السياسية او من تراجم بعض الاشخاص حيث يذكر مكان اقامة المترجم له او دفنه في بغداد ، كما يشيرون الى الحرائق والتخريبات او الاماكن التي حدثت فيها بعض الاحداث التي دونوها ، ولهذه المعلومات اهمية غير قليلة حيث انها تعين على تحديد زمن وجود المكان واهميته احياناً ، غير أن الاغلبية المطلقة لهذه المعلومات هي اشارات عابرة لخطط تذكر عادة منفردة ، اللهم الا ما يرد في وصف الحروب واحوال الحصار من ذكرعدة اماكن وايراد معلومات عن مواقعها ولما كانت هذه المعلومات مشتتة مبعثرة فاننا لا نتطرق الى تقييمها او حصرها ، بل نكتفي بالاشارة الى اهميتها لمن اراد استكمال البحث اما هنا فاننا نقصر بحثنا على عرض المؤلفات التي اختصت كلها او فصول منها لخطط بغداد .

ان اغلب المؤلفين العرب الذين كتبوا في التاريخ العام لم يخصوا موضوع بناء بغداد وتوسعها وخططها بتفاصيل وافية فالبلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ ه لم يذكر شيئاً عن بناء بغداد في الفصل الذي كتبه عن المنصور في انساب الاشراف ، اما في فتوح البلدان ، فقد خص مدينة السلام بفصل تبلغ صفحاته ستاً فقط اورد فيه معلومات قيمة ، ولكنها لا تقارن بتفاصيلها وشمولها بما اورده عن الكوفة او البصرة ، هذا بالرغم من ان كتابه مزيج من التاريخ والجغرافية ، ولعل البلاذري كان يشعر ان بغداد خارجة عن نطاق بحثه المحدد بالاماكن المفتوحة والتى لها اهمية عسكرية ولم يخص خليفة بن خياط بغداد بشيء في كتابه التاريخ الذي يؤمل طبعه قريباً

اما اليعقوبي الذي سنتحدث فيما بعد عن الفصل القيم الذى كتبه في كتابه البلدان ، فانه لم يخص في تاريخه بناء بغداد باكثر من ثمانية اسطر اجمل فيه اهمية موقع بغداد ، وعدد ابوابها ، وسورها ، وقطائعها (ج ٢ ص ٤٤٩ ـ ٥٠)

اما المسعودي فانه خص في كتابه « التنبيه والاشراف » بغداد ببضعة اسطر تحدث فيها عن اشتقاق كلمة بغداد ، وزمن بناء المدينة ، وعن الرصافة ، وكل ذلك في معرض كلامه عن الامصار (ص ٣١٢)

واقتصر كتاب مروج الذهب على نقل حكاية عن ابن عياش المنتوف ، وذكر معها عرضاً أبواب المدينة وطاقاتها وبقاءها الى زمنه (ج ٣ ص ٢٩٩) غير انه ذكر « وقد أتينا على كيفية بناء هذه المدينة ، واختيار المنصور لهذه البقعة بين دجلة والفرات ، ودجيل والصراة ، وهذه أنهار تأخذ من الفرات ، وأخبار بغداد ، وعلة تسميها بهذا الاسم ، وما قاله الناس من ذلك ، وخبر القبة الخضراء وسقوطها في هذا العصر ، وقصة قبة الحجاج الخضراء التي كان الحجاج بناها بواسط العراق وبقاؤها الى هذا الوقت وهو سنة ٣٢٢ في كتابنا الأوسط الذي كتابنا هذا تال له » (٣/٢٩٩) ومن سوء الحظ ان الكتاب الأوسط مفقود ، غير انه اذا كانت هذه هي كل المواضع التي بحثها ، فان بحثه لا يكون

شاملاً لـكل خطط بغداد

ومن الغريب أن يهمل هؤلاء المؤرخون دراسـة بغداد على عظمها وأهميها ، في هذا العصر المبكر الذي اهم فيه المؤلفون بدراسـة خطط المدن كالذي فعله الأزرقي في أخبار مكة ، وابن زباله ، ويحي بن الحسن ، والزبير بن بكار في خطط المدينة ، وابن يونس ، وابن زولاق والـكندي في خطط القاهرة

وقد خص معظم الجغرافيين العرب بغـداد ببحوبهم ، فـذكروا وصفها ، وخاصة فى زمهم وهذا ما فعله ابن جبير وابن بطوطة في رحلاتهم ، وابن رسته

تعد الفصول التي اوردها اليعقوبي في البلدان وابن سيرابيون فى كتاب عجائب الأقاليم وابن الفقيه في كتاب البلدان والطبري في تاريخه والخطيب في تاريخ بغداد والمواد المشتتة في معجم البلدان والتي لخصها وأضاف اليهـا مؤلف مراصد الاطلاع من أغنى الفصول التي وصلت الينا عن خطط بغداد وسنقتصر في هذه الدراسة على دراســة ما جاء في المصادر الخمسة الأولى مرجئين دراسة ما ورد فى معجم البلدان ومراصد الاطلاع الى مقال آخر

خص اليعقوبي خطط بغداد بعشرين صحيفة تلت مقدمة كتابه « البلدان » ، وقــد تقصد البدء بدراسة بغداد وتفصيل أحوالها لان العراق « وسط الدنيا وسرة الأرض » وبغداد « وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير » (٢٣٤) وبعد أن بين أهمية موقعها ، والمحاولات التي قام بهـا أبو العباس والمنصور لإيجاد عاصمة لهما حتى استقر رأي الأخير على موقع بغـداد ، ثم بحث عن بناء مدينة المنصور ووصف أسوارها وأبوابها ، وعدد سكـكها ، وأرباع أرباضها ومن اختط فيها ، ثم تـكلم عن الشرقية وعن الـكرخ وقنواتها ، وعن الجانب الشرقي وقد حصر اليعقوبي كلامه بوصف المدينة عند بنائها وفي أوائل عهدها ، وكان يعلم أن بعض خطط المدينة قــد تبدل ؛ وقد أشار إلى ذلك عند كلامه عن بعض سكك المدينة المدورة حيث يقول « وسكة تعرف في هــذا الوقت بالقواريري قــد ذهب عني اسم صاحبها .. وسكة تعرف اليـوم بالزيادي وقد ذهب عني اسم صاحبها » (٢٤٠) ؛ ويقول في آخر الفصل الذي كتبه عن بغداد « وهذه القطائع

والشوارع والدروب والسكك التي ذكرها على ما رسمت في أيام المنصور ووقت ابتدائها ، وقد تغيرت ومات المتقدمون من أصحابها وملكها قوم بعد قوم ، وجيل بعد جيل ، وزادت عمارة بعض المواضع وملك قوم ديار قوم ، وانتقل الوجوه والجلة والقواد وأهل النباهة من سائر الناس مع المعتصم إلى سرمنرأى في سنة ثلاث وعشرين ومائتين »

ان المعلومات التي قدمها اليعقوبي تفوق ما قدمه غيره ، فالسكك التي ذكرها في المدينة المدورة تبلغ اربعين سكة ، في حين أن الخطيب لم يذكر سوى خمس سكك ، وقطائع الأرباض لا تقارن بتفاصيلها بما ذكره الخطيب لذلك فاننا نعجز عن تدقيق ما أورده اليعقوبي لانفراده في ذكر معظم المعلومات التي أوردها

ان الفقرة الأخيرة التي أوردها اليعقوبي تشير صراحة الى أن بحثه قائم على وصف المدينة أيام بنائها ، لا في أيامه ، ومع أنه يؤكد أنها ظلت عامرة حتى زمنه رغم من انتقل عنها بعد انشاء سامراء ، إلا أنه لايذكر ما عرى خططها من تبدل وتغير ، حتى انه وهو المحقق الذي ظل يجمع مادة كتابه منذ عهد شبابه (ص ٢٣٢) غاب عنه إسم صاحبي سكة القواريري وسكة الزيادي ويلاحظ انه ألف كتابه وهو بعيد العهد عن بغداد حيث يقول عند كلامه عن سويقة عبد الوهاب « وبلغني ان السويقة أيضاً خربت » (٢٤٢)

ولا يفوتنا أن نذكر ان كتاب البلدان طبع على نسخة فريدة ناقصة ، ويظهر نقصها في مقدمها ، وفي القطع الواضح في الفصل المكتوب عن البصرة ، وفي النصوص غير القليلة المنقولة عن بلدان اليعقوبي في الكتب الأخرى ؛ هذه النصوص التي جمعها دي غويه وألحقها بالمطبوع ، تعد دليلا واضحاً على نقص الكتاب ، وكان المؤمل ان تكون حافزاً للبحث عن نسخة أكمل من هذا الكتاب العظيم ، ولكن يبدو أن الناس ظلوا يعتمدون على النسخة المطبوعة ولم يحاولوا البحث عن نسخة أكمل ، وهكذا أعيد طبع هذا الكتاب

فى النجف عدة مرات دون أية محاولة لإكمال هذا النقص

* * *

ومن الفصول القيمة عن خطط بغداد الفصل المنسوب إلى سهراب أو ابن سيرابيون والذي نشره وترجمه لي سترانج، ثم أعاد نشره مزيك ضمن كتاب عجائب الأقاليم وفي هذا الفصل تفصيل دقيق عن انهار بغداد أي الترع التي تخترقها، مع ذكر ما يتشعب منها وما عليها من خطط، وهو أوسع فصل في موضوعه، وقد نقله الخطيب البغدادي حرفياً تقريباً بسنده من « عبد الله بن محمد البغدادي بطرابلس عن بعض متقدمي أهل العلم » (١/١١٢) وقد نقل ياقوت أيضاً هذه المعلومات عن أنهار بغداد ووزعها على حروف الهجاء لتنسجم مع تنظيم كتابه، دون الاشارة إلى المصدر الذي استقى منه هذه المعلومات وما إذا كان استمدها من الخطيب أم من سهراب أم من مصدر آخر غيرهما ان تشابه مادة هذه المصادر الثلاثة تجعل فصل أنهار بغداد خالياً من العيوب التي نجدها في وصف سهراب لأنهار المناطق الأخرى، وذلك كالعيوب التي لاحظها هرزفيلد عن انهار سامراء وروبرت أدامز عن مجرى دجلة بين المدائن وواسط (انظر ص ١٧٨ من كتاب « ارض وراء بغداد » لروبرت ادامز) وعما نلاحظه من عيوب وخلل في وصف الانهار المتشعبة من دجلة أسفل واسط، أو مجرى نهر سورا بين بابل والنيل

* * *

بحث الطبري في كتابه العظيم « تاريخ الأمم والملوك » عن انشاء بغداد في مكانين من القسم الثالث (٢٧٢ ـ ٢٨١/٣٢٠ ـ ٣٢٧) ومجموع كلامه لايزيد على خمسة عشر صحيفة، تناول في القسم الأول منها اختيار موقع بغداد وخصائصه، والقرى التي كانت في موضع بغداد قبل إنشائها، أما في القسم الثاني فتحدث عن بناء بغداد، ومحاولة نقض إيوان كسرى، والاشراف على البناء، ونفقاته، وعن أبواب المدينة والاسواق ونقلها ويتبين من هذا ان القسمين متكاملان، وان فصلهما جرى بسبب تقسيم الكتاب غير ان هذه المعلومات متقطعة، غير كاملة ولا شاملة، ولا يستطيع المرء تكوين صورة واضحة

أو دقيقة للمدينـة منها ولا نستطيع الجزم بسبب اختياره هذه المادة دون غيرها عن بغداد الأولى وجدير بالذكر ان المعلومات التي أوردها مذكورة عند ابن الفقيه الهمداني والخطيب البغدادي .كماسنبين فيمابعد .

لم يستخدم الطبري فيما رواه عن بغداد سلسلة كاملة من المسانيد ، ولـكنه ذكر عدداً من الأخبار دون التصـريح بمصدرها واكتفى بكلمة « وذكر بعضهم » (أنظر ص ٣٢٢/٣٢٣/٣٢٥) كما انه لم يذكر شيوخه في هذه المسانيد . اماالرواة ألذين أخذ عنهم مادته فهم متعددون ، وأغلبهم منفردون . وأهمهم :

(١) حماد التركي ، فقد روى عنه نصوصاً عن أهمية موقع بغداد ، وما حولها من القرى ، والاديرة ، وقد روى عنـه ايضاً اخباراً عن المنصور ، يبدو منهـا انه كان من الفرسان (٣/٤٣٠) وانـه كان مقرباً من الخليفة (٣/٣٤٣/٣٩٢) وقد جاءت معظم روايات حماد عن طريق ابراهيم بن عيسى بن أبي جعفر

(٢) سليمان بن مجالد وهو من القواد المقربين للمنصور (٣/٤٢٩) وقد روى الطبري عنه أهمية موقع بغداد ، وقصة المقلاص ، وتولية أبي حنيفة الإشراف على البناء كما روى عنه أخباراً عن ثورة أهل الـكرخ

(٣) يحي بن الحسين بن عبد الخالق وهو خال الفضل بن الربيع ، وقد روى عنه شكوى عيسى بن علي من المشي ، ونقل الأســواق ، وتولية القواد البناء وقد روى عنه أيضاً اخباراً عن أرزاق الـكتاب ، وعن مقتل موسى الهادي ، وعن الرشيد والمأمون

(٤) وقد روى عن الفضل بن سليمان سبب نقل الاسواق ، وعن ابراهيم الموصلي محاولة هدم إيوان كسرى ، وعن رشيد أبي داود عن احتراق الساج والخشب ، وعن محمد بن موسى بن الفرات عن نهر طابق كما روى عن كل هؤلاء أخباراً قليلة عن أمور أخرى

* * *

يصح القول ان اوج ما وصلنا عن تاريخ بغداد هو الـكتاب الذي ألفه أبو بكر أحمد ابن علي البغدادي ، فقد وصفه السبكي بأنه « من أجل الـكتب وأعودها فائدة » (طبقات

الشافعية ١/١٧٢) ووصفه حاجي خليفة بأنه « كتاب عظيم الجمع والنفع » (كشف الظنون ١/٢٨٨ وقد ادرك الأقدمون عظمة هذا الكتاب فقاموا بتلخيصه وتذييله ، فقد ذكر حاجي خليفة ممن لخصه أبو اليمن مسعود بن محمد البخاري ، وان ممن ألف ذيلاً على تاريخ بغداد أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني صاحب الانساب (ت ٥٦٢ هـ) وأبو عبد الله محمد بن سعيد المعروف بابن الدبيثي (ت ٦٣٧ هـ) ومحب الدين محمد بن محمود ابن النجار (ت ٦٤٣ هـ) وقد ذيل على كتاب السمعاني عماد الدين محمد بن محمد الكاتب (ت ٥٩٧ هـ) ؛ وعلى كتاب ابن الدبيثي ابن القطيعي ، كما لخص شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨) ذيل ابن الدبيثي ، وذيل على كتاب ابن النجار تقي الدين محمد بن رافع (ت ٦٧٤هـ) وأبي بكر المارستاني الذي ذيل عليه علي بن أنجب بن الساعي (ت ٦٧٤ هـ) ولم يطبع من هذه الكتب غير ملخص شمس الدين الذهبي لذيل ابن الدبيثي ، فقد طبعه الزميل الدكتور مصطفى جواد ؛ أما بقية الكتب فلم يطبع منها شيء ، وقد بقيت منها مخطوطات متفرقة في مكتبات الشرق والغرب ، وقد فصل بروكلمان في كتابه العظيم تاريخ الأدب العربي مواضع وجود مخطوطاتها ، دون المصورات التي نقلت عن تلك المخطوطات

لقد طبع تاريخ بغداد في أوائل الثلاثينات ، ثم أعيد طبعه حديثاً مصوراً على الطبعة القديمة ؛ ويتكون الكتاب في كلتا الطبعتين من أربعة عشر جزءاً يضم كلاً منها حوالي أربعمائة صحيفة وقد تكلم في الجزء الأول عن حكم ارض بغداد والسواد ، ومناقب بغداد ، ونهري دجلة والفرات وبعض أخبار المنصور ، ثم خصص ٥٤ صحيفة (٦٦ ـ ١٢٠) لخطط بغداد ، ثم تكلم عن المدائن ومن نزلها ، اما الباقي فقد خصصه كله لتراجم من عاش ببغداد أو مرّ بها وقد ذكر في ثنايا هذه التراجم آلاف الاشارات الى خطط بغداد وأنهارها وجوامعها وأسواقها ومقابرها ودورها وقصورها مما له أهمية عظيمة في دراسة خطط بغداد ولما كانت هذه الاشارات عرضية مفردة ، فاننا لا ندخلها ضمن نطاق بحثنا الحالي الذي نركزه على الاربع والخمسين صحيفة التي خصصها لدراسة خطط بغداد

لقد أشرنا في أول مقالنا الى الأهمية الكبرى لدراسة تطور خطط بغداد وتقرير الأوضاع التي كانت قائمة في كل زمن أو حقبة معينة ؛ وبينا أن دراسة هذا التطور يستلزم معرفة الزمن الذي تشير اليه المعلومات التي تذكرها المصادر ، وان من أهم وسائل تقرير هذا الزمن هو معرفة تاريخ المصدر الذي تنقل عنه معلوماتنا ، وان غرضنا الرئيسي من هذا المقال هو فحص التاريخ الذي وجد فيه الخطط التي يصفها المصدر ؛ ومما يسهل تحقيق غرضنا هو معرفة مصادر الأخبار المتعلقة بالخطط ومما يسهل تحقيق هذا الغرض ان معظم المؤرخين المسلمين القدماء ، ومنهم الطبري والخطيب ، كانوا يذكرون مصادر رواياتهم ، كما ان كثيراً من هذه المصادر كانت تشير الى الفترة التي يتناولها بحثهم

غير ان معرفتنا أسماء الكتب التي اختصت أو اهتمت بدراسة خطط بغداد لا يكفي لتقرير مدى مساهمتها ، أو مدى مساهمة الخطيب في دراسة خطط بغداد وتاريخ تطورها ؛ لأن هذا لايتم إلا اذا وجدت الكتب نفسها كاملة ، وقد لاحظنا ان معظم هذه الكتب مفقود ، زال أثره أو لم تبق منه الا مقتطفات مهما كان طولها فهي لا تكفي لإصدار حكم قاطع على اهمية هذا المصدر ثم ان الخطيب يذكر الرواة الذين نقل عنهم ، ولا يشير الى اسماء كتبهم التي نقل عنها هذه المعلومات ومن المعلوم انه يذكر السند كاملاً في الغالب وان رجال السند كلهم ، أو معظمهم أحياناً ، علماء مؤلفون ، فلا نعلم أحياناً أيهم المؤلف وأيهم الراوية ثم أن الخطيب يورد أحياناً معلومات دون ذكر مصدرها ، كما انه ينقل معلومات مسندة تشبه المعلومات الموجودة في الكتب الأخرى المعتمدة ، ولكنه لايذكر انه أخذها من تلك المصادر وقد ذكرنا من قبل اشاراته الى ما نقله عن طيفور ، أما في الصفحات التالية فسنقارن ما ذكره عن الخطط بما ورد في الكتب الرئيسة الثلاثة التي بحثت خطط بغداد في أدوارها الأولى ، وهي الطبري ، واليعقوبي ، وسهراب ، بما جاء في الخطيب ، ثم نحلل مساند الخطيب في بحثه عن خطط بغداد في القسم الذى أشرنا الى ان البحث سيقتصر عليه

لم يذكر الخطيب سهراب واليعقوبي ، وقد ذكر الطبري مرة واحدة (ص٦٦) غير ان مقارنة ما أورده بالمادة الموجودة في هـــذه الـكتب تبين انه نقل حرفياً ، تقريباً ، كل ما أورده سهراب عن أنهار بغداد ، غير ان الخطيب يذكر انه حدثه بها عبد الله بن محمد بن علي البغدادي بأطرابلس عن بعض متقـــدمي العلماء وذكر أنهار بغداد فقال .. (١١٢) وجدير بالملاحظة ان هذا الفصل يطابق ما جاء في سهراب (١٢١ ـ ٣٢) وما جاء في مناقب بغداد المنسوب لابن الجوزي ، وينطبق بعضه على ما نقله ياقوت والراجح ان سهراب هو مصدر الجميع

أما علاقة الخطيب بالطبري ، فلا بد أن نذكر انه بمقارنة ما كتبه الخطيب بما كتبه الطبري عن نشوء بغداد (٢٧٢ ـ ٢٨١ ؛ ٣٢٠ ـ ٣٢٧) نجد ان الطبري انفرد بتفاصيل عن تفتيش المنصور عن موضع لبناء بغـــداد ، وخصائص موقعها (٢٧٢ ـ ٢٧٨) ومقام المنصور بالدير (٢٨١) ؛ وكذلك عن احتراق الساج عند بناء بغداد (٣٢٠) ومحاولة نقض إيوان كسرى (٣٢١) وبناء الطاقات (٣٢٦) غير ان بقيـــة المعلومات التي أوردها الطبري نقلهـا الخطيب بنصوص روي أغلبهـا عن وكيع وهـــذه المعلومات تشمل تولية أبي حنيفة الاشراف على عدّ اللبن (٢٧٩ ط = ٧١ خ) وقرية بني زرارة والشرفانية وقطيعة الربيع وبناورى (٢٨٠ ط = ٢١(٨١ ، ٨٨ خ) وأبواب بغداد (٣٢٢ ط = ٧٥ خ) واشراف الحجاج بن ارطاة على عمارة المسجد (٣٢٢ ط = ٧٠ خ) ووزن اللبن (٣٢٣ ط = ٧٢ ، ٧٠ خ) وركوب عيسى بن علي في المدينة المدورة (٣٢٤ ط = ٧٣ خ) وانتقاد البطريك خطط بغداد (٣٢٤ ط = ٨٠ خ) وثورة أهل الـكرخ ونقلهم (٣٢٥ ط = ٧٩ خ) ونفقات البناء (٣٢٧ ط = ٦٥ خ) ويتبين من كل هذا ان الخطيب استوعب المادة المهمة في الطبري ، ولـكنه نقلها عن وكيع ، ولم يشر فيهـا الى الطبري بالرغم من تشابه المادة

اما اليعقوبي فان الخطيب نقل عنه نصين (٦٦/٦٩ خ) دون ذكر مصدره ، ومع

ان كلامن اليعقوبي والخطيب متفقان في ذكر سكك بغداد وقطائعها واهميتها ، الا ان اليعقوبي اشمل بحثاً وادق تعبيراً، اما الخطيب فقد ذكر بعض السكك والقطائع ، مع معلومات اوضح عن اصحابها ، كما ذكر اهمية بغداد وعظمها ولكن بافكار واسلوب يخالف ما جاء في اليعقوبي .

ان المعلومات التي اوردها الخطيب عن خطط بغداد فيها نصوص ذكر انها كانت منه او لم يذكر مصدرها ، ولكن اغلبيها المطلقة جاءت مسندة ، اي انه اخذها من مصادر ذكرها وتختلف المصادر في كثرة ما نقله عنها الخطيب وسنذكرها فيما يلي مرتبة حسب كثرة من نقل عنهم

نقل الخطيب اغلبية المعلومات التي اوردها عن خطط بغداد في اوائل عهد تأسيسها عن محمد ابن خلف المعروف بالقاضي وكيع ؛ فقد نقل بسند عن وكيع مباشرة ما اورده عن استخدام ابي حنيفه في بناء بغداد (٧١) وابواب مدينة المنصور وسورها (٧٢ ـ ٧٣) وصفة المدينة (٧٦) وسوق البطيخ والاسواق (٨١) والطاقات والارباض (٨٣) ومربعة ابي العباس (٨٤) وبستان القس (٨٥) وبعض الاقطاعات (٨٥) وبعض الدور والسكك (٨٧) وبركة زلزل (٨٨) وقطيعة الربيع (٨٨) وطاقا الحراني (٩٠) والانهر والقطائع (٩١) والسويقات (٩٣) ومربعة الحرشي وقصر رخج (٩٤) والدروب (٩٦) وسوق الثلاثاء (٩٦) وحوض داود (٩٧) وسجن المنصور (١٠٧)

وروى الخطيب ايضاً احد عشر نصاً عن وكيع الذي نقلها بدوره عن راوية آخر فقد نقل الخطيب رواية وكيع عن ابن الاعرابي حول انحراف القبلة (١٠٧) وعن الحارث بن اسامة حول البطريق والاسواق (٨٠) وتاريخ اكمال الرصافة (٨٢) وعن ابي هيثم الفراش حول اقطاع المسيب (٨٥) وعن ابي زيد الخطيب عن جهار سوق المنار (٨٥) وعن يحيي بن الحسن بن عبدالخالق عن دار عباد (٩٦) وعن بعض الخطط (٧٠) وعن احمد ابن الحارث العتابي عن مصادر ابواب بغداد (٧٥) وعن احمد بن ابي طاهر عن مربعة العباس (٨٤) وعن مساحة بغداد (١٢٠) وبادوريا (٨٨)

وقد نقل الخطيب رواية وكيع عن احمد بن الخليل بن مالك عن ابيه حول جسور بغداد (١١٥) وما رواه عن محمد بن ابي علي عن محمد بن عبدالمنعم بن ادريس عن هشام بن محمد (الكلبي) حول المخرم (٩٥)

يبدو ان الخطيب نقل نصوصه من كتاب مدون الفه القاضي وكيع ، وانه كانت لهذا الكتاب منه روايتان بينهما بعض الاختلاف ، وان الخطيب اطلع على كلتا الروايتين لكنه فضل احداهما فاكثر النقل عنها ، ولم يهمل الثانية بل نقل عنها نصين على الاقل

والنسخة التي اعتمدها الخطيب ونقل عنها اكثر نصوصه عن القاضي وكيع هي رواية محمد بن علي الوراق واحمد بن علي المحتسب عن محمد بن جعفر النحوي عن الحسن بن محمد السكوني عن محمد بن خلف وكيع ، فاما الوراق فهو محمد بن علي بن محمد بن مخلد بن خداش بن عجلان المتوفى سنة ٤٢٢هـ وقد ذكر الخطيب اسمه بعدة صور هي: محمد بن علي الوراق ومحمد بن علي بن مخلد ، وابن مخلد وقد ترجم له ترجمة قصيرة ذكر فيها « وكتبت عنه » (٣ / ٩٤ ـ ٥)

اما احمد بن علي المحتسب فهو احمد بن علي بن الحسين بن محمد بن موسى المحتسب المعروف بابن التوزي (٣٦٤ ـ ٤٤٢هـ) وقد ذكره الخطيب مرة على احمد بن علي، ومرة على احمد بن علي المحتسب ، ومرة على« التوزي » وترجم له ترجمة مقتضبة ذكر فيها انه « كثير الكتاب .. كتبت عنه وكان صدوقاً » (٤ / ٣٢٤)

لقد ذكرنا ان محمد بن علي الوراق واحمد بن علي المحتسب رويا عن محمد بن جعفر النحوي المعروف ايضاً بابن النجار (٣٠٣ ـ ٤٠٢ هـ) وقد الف محمد بن جعفر هذا كتاباً في تاريخ الكوفة نقل عنه ياقوت في ارشاد الاريب (٣/٦٩ ، ٤/٢٤٥ ، ٥/١١٣ ، ٦/٤٦٨)ومعجم البلدان(٣/٨٤٨ ؛ ٤ / ٥٦٨/ ٦٣٣) وقد ترجم الخطيب لمحمد بن جعفر وذكر انه من اهل الكوفة ، وأنه قدم بغداد وحدث بها عن « الاشناني والحريري وابن مروان والمحاربي وابن دريد ونفطويه وابي روق الهمداني ومحمد بن يحيى الصولي ،

وذكر أيضاً « حدثنا عنه محمد بن علي بن مخلد الوراق واحمد بن علي بن التوزي »

اما الحسن بن محمد السكوني فلم يترجم له الخطيب ، وفعل ذلك القهبائي في مجمع الرجال (٢ / ١٤٨) والتستري في الرجال (٣ / ٢٣٣) والاردبيلي في جامع الرواة (٢٢٤) وكرروا القول بانه « الحسن بن محمد بن الحسن السكوني الكوفي ابو القاسم وروى عنه التلعكبري وسمع منه في داره بالكوفة سنة ٣٤٤ » وقد ذكره كل من ابن المطهر في خلاصة الاقوال (٥٩٥) والحسن بن داود في الرجال (٤٤) الحسن بن الحسين السكوني ، ولا نعلم اذا كان المقصود هو الحسن بن محمد السكوني الراوية ام انهما شخصان مختلفان

ويبدو ان الخطيب اعتبر السكوني راويها المعتمد فهو يقول « وذكر باب خراسان كان قد سقط من الكتاب فلم يذكره محمد بن جعفر عن السكوني وانما استدركناه من رواية غيره » (١/١٧٢) وواضح من هذا النص ان لمحمد بن خلف كتاباً مؤلفاً نقلت عنه النصوص

وجاءت روايتان عن وكيع لم يذكر الخطيب سندها بل اكتفى بالقول « فيما بلغني عنه » (١/٧٢ ، ٧٣) وبالاضافة الى ذلك توجد ايضاً روايتان نقلها الخطيب عن طريق ابي عبدالله الحسين بن محمد بن جعفر الخالع عن علي بن محمد بن السري الهمداني عن محمد بن خلف (١ / ٩١ ، ٩٤)

ولا نعلم من اي كتب وكيع نقل الخطيب النصوص المتعلقة بخطط بغداد ، لان النص الذي نقلناه فيما مر يدل على ان الخطيب نقل عن احد كتب وكيع ، لكنه لا يصرح اي كتب وكيع جاء منه النقل ، فهو بالرغم من كثرة ما نقل عن وكيع لم يذكر في ترجمته انه الف كتاباً عن بغداد ، بل يقتصر على القول انه « محمد بن خلف بن حيان بن صدقة بن زياد ابو بكر الضبي القاضي المعروف بوكيع كان عالماً فاضلا عارفاً بالسير وايام الناس واخبارهم ، وله مصنفات كثيرة منها كتاب الطريق وكتاب الشريف ،

وكتاب عدد آي القرآن والاختلاف فيه » ويروى ايضاً انه « كان من اهل القرآن والفقه والنحو له تصانيف كثيرة في اخبار القضاة، وفي عدد آي القرآن وكتاب الشريف، والرمي والنضال، والمكاييل والموازين، وغير ذلك » (٥ / ٢٣٦ ـ ٧) ويذكر ابن النديم في الفهرست (ص ١٦٦) ان لوكيع « كتاب اخبار القضاة وتاريخهم واحكامهم، كتاب الشريف يجري مجرى المعارف لابن قتيبة، كتاب الانواء، كتاب الغزو وأخباره، كتاب المسافر، كتاب الطريق ويعرف ايضاً بالنواحي ويحتوي على اخبار البلدان ومسالك الطرق ولم يتمه، كتاب التصرف (لعله الصرف) والنقد والسكة كتاب البحث ». وقد ذكر المسعودي في مقدمة مروج الذهب مؤلفات العرب في التاريخ ومنها « الكتاب الشريف تأليف ابي بكر محمد بن خلف المعروف بوكيع القاضي في التاريخ وغيره... »

ويتبين من ذلك أن نصوص خطط بغداد ربما كانت من كتاب اخبار البلدان او الكتاب الشريف، وكلاهما مفقود ولم يشر احد الى محتواهما او ينقل منهما

والمصدر الرئيس الثاني من حيث الكمية، الذي استقى منه الخطيب معلوماته عن خطط بغداد هو ابراهيم بن محمد بن عرفه الازدي المعروف بنفطويه (المتوفى سنة ٣٢٣ هـ) فقد اخذ عنه معلومات عن الطالع (٦٧) وثورة اهل الكرخ واسواقها (٧٩) وشارع القحاطبة (٨٥) والقطائع (٨٨، ٩٢) وقطيعة العباس (٩٥) ودار اسحق (٩٣) وقصر رخج (٩٤) ونهر المهدي والمعلى (٩٦) وحوض داود (٩٧) وقصور بغداد الشرقية (٩٨)

لقد استمد الخطيب معلوماته من نفطويه عن طريق ابي القاسم الازهري عن احمد بن ابراهيم بن الحسن عن ابيه عن ابراهيم بن محمد بن عرفه، دون ذكر اسم الكتاب الذي اخذ منه الخطيب هذه المعلومات عن ابن عرفه، وجدير بالذكر ان الخطيب عندما ترجم لابن عرفه هذا لم يذكر له غير كتابين هما «غريب القرآن» و« التاريخ »(٥/١٥٩ـ٦٠) اما ابن النديم فقد ذكر بالاضافة الى ذلك كتباً اخرى في القراءات والنحو واللغة والعقائد(١٢١)

وقد نقل ياقوت عن ابن عرفة في عشرة مواضع من معجم البلدان نصوصاً لا علاقة

لها بخطط بغداد ولا اشارة الى الكتاب الذي نقلت منه اما المسعودي فانه يعدد في مقدمة كتابه مروج الذهب المؤلفات العربية فى التاريخ ويذكر من ضمنها « تاريخ ابي عبدالله ابراهيم بن محمد بن عرفة الواسطي النحوي المعروف بنفطويه فحشو من ملاحاة كتب الخاصة مملو من فوائد السادة ، وكان احسن اهل عصره تأليفاً واصلحهم تصنيفاً » ولعل الخطيب نقل عن نفطويه في خطط بغداد من هذا الكتاب المفقود الذي لا نعلم احداً نقل عنه غير الخطيب

نقل الخطيب مباشرة عن هلال بن المحسن ستة نصوص عن خطط بغداد ، وهي تتعلق بدار الخلافة والتاج (٩٩) والمخرم (١٠٥) والمسجد (١٠٩) والجسور (١١٦) والسميريات (١١٧) والحمامات (١١٨) ونقل بواسطة هلال عن ابي الحسن بن بشر بن علي بن عبيد النصراني حول الازدحام في بغداد (٧١) ومن ابي نصر خواشاذ خازن عضد الدولة حول دار الخلافة (١٠٠) ومن جماعة عارفين حول زيارة رسول ملك الروم (١٠٠) ومن ابن ام شيبان عن هذه الزيارة ايضاً (١٠٢)

لم يذكر الخطيب من اي كتب هلال نقل هذه النصوص ومن المعلوم ان هلال بن المحسن الصابي (٣٥٩ ـ ٤٤٨) الف عدة كتب منها كتاب الاماثل والاعيان ، وكتاب التاريخ الذي اشتمل على الحوادث التي جرت بين سنتي ٣٦٠ ـ ٤٤٧ ، وكتاب تحفة الامراء فى تاريخ الوزراء ، وكتاب الرسائل ، ورسوم دار الخلافة ، والسياسة ، وغرر البلاغة ، والكتاب، ومآثر اهله ؛ كما الف عن بغداد كتاباً نقل عنه ياقوت اربعة نصوص عن دار الخلافة (٢ / ٢٥٥) والانحلال الذي اصابها وتناقص الزروع فيما بين المحول والسندية (٢ / ٥٤٢) وفي درتا من نواحي الكوفة (٢ / ٥٦٥) وفي قصر ابن هبيرة (٤ / ١٢٣)

كما نقل عن هلال نصوصاً عن أبرقباذ (١ / ٩٠)و بردعة (١ / ٥٥٨) والمبارك (٤ / ٤٠٩) والرواية المنقولة عن دار الخلافة هي نفسها التي رواها الخطيب ، مما يرجح ان الخطيب اخذ رواياته عن كتاب التاريخ .وجدير بالذكر ان صاحب كتاب مناقب بغداد نقل

عن هلال بن المحسن نصاً يتعلق بما حدث من انحطاط في احوال بغداد في اواخر عهده (٣٣) ولما كان معظم ما نقله ياقوت من هلال نصوصاً تتعلق بانحطاط بغداد في اواخر حياة هلال الصابي ، فانه يمكن القول ان هلال اهم بدراسة « بغداد وذكر خرابها » كما يقول ياقوت (٤ / ١٢٣) ولعل هذا هو العنوان الاصلي لكتاب هلال ومهما يكن الأمر فان النصوص المنقولة عن هلال تتعلق باحوال بغداد في القرن الرابع الهجري ، فهي تصف الاحوال التي وقعت في زمن مؤلفها ولا تتطرق الى خطط بغداد واحوالها في اوائل عهد تأسيسها.

ونقل الخطيب عن ابراهيم بن مخلد القاضي عن اسماعيل بن علي الخطبي اربعة نصوص : واحد منها عن انشاء المهدي قصر السلام بعيساباذ (٩٧) والثلاثة الاخرى عن توسيع جامع المنصور (١٠٨) وعن سقوط راس القبة الخضراء (٧٣)

لقد كان ابراهيم بن مخلد (٣٢٥ ـ ٤١٠ هـ) من شيوخ الخطيب وقد ترجم له في الجزء السادس وقال « كتبت عنه » اما اسماعيل بن علي الخطبي (٢٦٩ ـ ٣٥٠ هـ) فقد ترجم له في الجزء السادس (ص ٢ ـ ٣ ـ ٥) وذكر انه « صنف تاريخاً كبيراً على السنين » وقد ذكر ابن النديم هذا الكتاب(٢٤٣) ويبدو ان النقل جاء من هذا الكتاب

ونقل الخطيب بسند عن محمد بن الحسين بن الفضل القطان عن عبدالله بن جعفر بن درستويه النحوي عن يعقوب بن سفيان اربعة نصوص عن تاريخ انهاء البناء (٦٧) وتاريخ الانتقال الى الكرخ (٧٩) ومسجد الرصافة زمن المهدي (١٠٩) وبناء الخلد ونصب الجسر (١١٥)

ومحمد بن الحسين بن الفضل القطان ذكره الخطيب وقال انه توفى سنة ٣٠٦ هـ وانه روى عن عمرو بن الفلاس كتاب التاريخ (٢[٢٣٢) ولما كان الفلاس محدثاً بصرياً مشهوراً (١٢ / ٢٠٧) فالراجح ان المعلومات الواردة في كتاب الخطيب لم تؤخذ من هذا الكتاب

اما عبدالله بن جعفر بن درستويه النحوي (٢٥٨ ـ ٣٤٧ هـ) فقد ترجم له الخطيب

وذكر انه حدث عن عدد من العلماء منهم يعقوب بن سفيان النسوي « وحمل عنه من علوم الادب كتب عدة صنفها منها تفسير كتاب الجرمي ، ومنها كتابه في النحو الذي يدعى الارشاد ومنها كتابه في الهجاء وهو من احسن كتبه .. وحدثنا عنه ابو الحسن بن رزقويه وابو الحسين بن الفضل وابو علي بن شاذان .. سألت البرقاني عن ابن درستويه فقال ضعفوه لانه لما روى كتاب التاريخ عن يعقوب بن سفيان انكروا عليه ذلك وقالوا له انما حدث يعقوب بهذا الكتاب قديماً فمتى سمعه ؟ وفي هذا القول نظر لان جعفر بن درستويه من كبار المحدثين وفهمائهم وعنده عن علي بن المديني وطبقته فلا يستنكر ان يكون بكّر بابنه في السماع عن يعقوب بن سفيان وغيره مع ان ابا القاسم الازهري قد حدثني قال رأيت اصل كتاب ابن درستويه بتاريخ يعقوب بن سفيان لما بيع من ميراث ابن الأبنوس فرأيته اصلا حسناً ووجدت سماعه صحيحاً »(٩ / ٤٢٨) وقد ذكر له ابن النديم عدداً كبيراً من المؤلفات ليس فيها كتاب في التاريخ (٩٢ ـ ٤)

ولم يترجم الخطيب ليعقوب بن سفيان ، كما ان صاحب لسان الميزان ترجم له ترجمة غامضة ذكر فيها رواته (٩ / ٣٠٧)

ويتبين مما ذكره الخطيب من ترجمة ابن درستويه ان المعلومات التي نقلها مستمدة من كتاب التاريخ

وقد نقل الخطيب عن ابي عبدالله محمد بن عمران بن موسى المرزبان ثلاثة نصوص احدها عن عبدالباقي بن قانع حول تسمية سويقة ابي الورد (٨٧) والثانية عن محمد بن يحيي عن محمد بن موسى المنجم حول ارتفاع مدينة بغداد (٨٢) والثالثة نقلها المرزباني عن كتاب بخط عبدالله بن ابي سعد الوراق عن عبدالله بن محمد بن عياش التميمي عن جده عياش ، وهي عن حرس ابواب بغداد (٧٠)

وترجم الخطيب للمرزباني (٢٩٦ ـ ٣٨٤ هـ) وذكر انه « حدث عن ابي القاسم البغوي وابي حامد محمد بن هارون الحضرمي واحمد بن سليمان الطوسي وابي بكر بن دريد وابي

عبد الله نفطويه وابى بكر الانباري ومن في طبقتهم بعـــدهم ؛ حدثنا عنه القاضيان ابو عبد الله الصيمري وابو القاسم التنوخي .. كان صاحب اخبار ورواية للادب وصنف كتباً كثيرة في اخبار الشعراء المتقدمين والمحدثين على طبقاتهم وكتباً فى الغزل والنوادر وغير ذلك ، وكان حسن الترتيب لما يجمعه ، غير أن اكثر كتبه لم تكن سماعاً له وكان يرويها اجازة (١٣٥/٣-٦)

وقدخصص له ابن النديم ثلاث صفحات ، ووصفهبانه « آخر من رأينا من الاخباريين المصنفين ، راوية صادق اللهجة واسع المعرفة بالروايات » ويذكر انه عاش ما بين٢٩٧-٣٧٨ وعدد له كتباً كثيرة فى الشعراء وغيرها ولا نعلم من اي الكتب اخذ الخطيب ما نقله عنه من نصوص عن بغداد

نقل الخطيب عن عبيد الله بن احمد بن عثمان الصيرفى نصين ، احدهما نقله عبيد الله عن الحسن بن علي بن عمر الحافظ عن ابن دريد حول المخرم (٩٥) والثاني نقله عبيد الله عن محمد بن عبد الله بن ايوب عن ابى العباس احمد بن عبد الله بن عمار الثقفي عن أبي ايوب ، وهو حول هدم المنصور دور الصحابة (٩٥)

وقـــد ترجم الخطيب لعبيد الله فذكر انه عاش بين ٣٥٥ - ٤٣٥ هـ وانه روى عن كثيرين ، وكان احد المكثرين من الحديث كتابة وسماعاً ومن المعنيين به والجامعين له (٣٨٥/١٠) ولكنه لم يذكر له كتاباً

نقل الخطيب روايات مفردة عن خطط بغداد الاولى دون ان نعرف مؤلفات اصحابها وهى :

(١) ابو عمر الحسن بن عثمان بن احمد الفلو الواعظ عن جعفر بن محمد بن احمـــد بن الحكم الواسطي عن الفضل العباس بن احمد الحداد عن احمد البربري : وهى عن مساحة بغداد ونفقاتها (٦٩)

(٢) أبو الفضل - أبو الطيب البزاز - خاله قيم بدر غلام المعتضد : مساحة بغداد (٦٩)

(٣) محمد بن اسحق البغوى - رباح البناء : ابعاد المدينة المدورة (٧١)

(٤) الحسين بن محمد المؤدب - ابراهيم بن علي الشطي - ابو اسحق الهجيمي - محمد بن القاسم - الربيع ! نفق بغداد (٧٧) وانتقاء الرومي لبغداد ٧٨

وقد اورد الخطيب في الصفحات التي خصصها للخطط تسعة نصوص لا علاقة لمحتواها بخطط بغداد ، وستة نصوص فيها شعر ؛ ورواتها وهم :

١ — ابو عبد الله احمد بن محمد بن عبد الله الكاتب عن ابن ميم عن احمد بن عبيد الله ابن عمار عن محمد بن داود الجراح (لم يمت فيها خليفة ٦٨)

٢ — ابو الحسن محمد بن رزق البزاز - جعفر الخلدي - الفضل بن مخلد الدقاق - داود ابن جعفر بن شبيب بن رسم البخاري (الاسعار زمن ابي جعفر ٧٠)

٣ — الحسن بن ابي بكر - عثمان بن احمد الدقاق - الحسن بن سلام السواق - الفضل ابن دكين (الاسعار في الكوفة ٧٠)

٤ — الجاحظ (احكام بناء بغداد ٧٧)

٥ — الحسن بن ابي طالب - ابو عمر محمد بن العباس الخزاز - ابو عبد الله الناقد - محمد بن غالب - عبد الرحمن بن يونس - الواقدي (ذم الكرخ ٨١)

٦ — محمد بن الحسن الاهوازي - ابو احمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري - ابو العباس بن عمار - ابن ابي سعد احمد بن كلثوم (نسب ابي دلامة ٨٦)

٧ — ابو الفضل عيسى بن احمد بن عثمان الهمداني - ابو الحسن بن رزقويه - القاضي الجعابي (مرور على بغداد ٩٠)

٨ — ابو عبد الله الحسين بن علي الصيمري - احمد بن محمد بن علي الصيرفي - القاضي الجعابي (مرور علي ببغداد ٩٠)

٩ — الوزير ابو القاسم علي بن الحسن بن المسلمة ـ الخليفة القائم ـ الخليفة القادر ـ زوجة المقتدر (زيارة رسول ملك الروم بغداد ١٠١)

١٠ — محمد بن احمد بن مهدي الاسكاف (موت هيلانة ٩٩)

اما النصوص المقصورة على رواية أبيات شعر تتعلق ببغداد فرواتها هم :

(١) الحسن بن بكر بن شاذان ـ أبيه ـ أبو عبد الله ابراهيم بن محمد بن عرفة (٨١)

(٢) الحسن بن أبي بكر ـ أحمد بن كامل القاضي ـ محمد بن موسى ـ محمد بن أبي السرى ـ الهيثم بن عدي (٨٢).

(٣) أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله المعدل ـ عثمان بن أحمد الدقاق ـ محمد بن أحمد ابن البراء ـ علي بن يقطين (٨٢)

(٤) علي بن محمد بن عبد الله المعدل ـ الحسين بن صفوان البردعي ـ أبو بكر عبد الله ابن محمد بن أبي الدنيا (٩٢)

(٥) محمد بن أحمد بن رزق ـ عثمان بن أحمد الدقاق ـ محمد بن أحمد بن البراء ـ علي بن أبي مريم (٨٦)

(٦) أحمد بن أبي علي الاصبهاني ـ أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد السكري ـ محمد بن يحيي الصولي ـ الغلابي ـ محمد بن عبد الرحمن

أما النصوص التي أورد فيها الخطيب معلومات من عنده فهي قليلة واكثرها تعليقات على مروياته من المصادر الأخرى وتشمل :

(١) تعليق على قول أحمد بن حنبل ان بغداد من الصراة الى باب التبن (٧١) وفيه معلومات عن الخطاط بغداد في زمنه

(٢) تسمية قصر المنصور الخلد وموضعه واندراسه فى زمن المؤلف (٧٥)

(٣) القنوات التي مدها المنصور في مدينته وفى الكرخ واندثارها في زمن المؤلف (٧٩)

(٤) عمارة طغرلبك دار المملكة (١٠٦)

(٥) تعليقات قصيرة على تسميات بعض المحال وهي عسكر المهدي (٨٣) شيرويه (٨٤) العباسية (٩٥) وكذلك مناقشة بعض الآراء عن اسهلاك بغداد للسويق في زمنه (١١٩)

(٦) اطراء بغداد (١١٩)

(٧) مساجد الشيعة ببغداد (٨١ ، ٩٠).

ويتبين من هذا ان النصوص التي أضافها الخطيب من عنده قليلة جداً نسبياً ، وهي تعكس انحطاط بغداد في زمنه ، فهي تكمل نصوص هلال بن المحسن الصابي ؛ كما ان هذه النصوص توضح اتجاهه العقائدي

أما بقية المادة التي أوردها فقد اعتمد فيها على رواة متعددين أغلبهم عاشوا في القرن الرابع الهجري ، أي في الفترة التيوصلت فيها بغداد الى أوج العمران ؛ ولم يذكر الخطيب كتب الرواة الذين اعتمد عليهم ، ونسبة ما نقل مما أهمل ، ومبرره في نقل بعض النصوص وإهمال البعض الآخر كما ان ذكره السند كاملاً يسبب ارباك الباحث الذي يريد معرفة المصدر المسؤول عن الخبر ومن حيث العموم فان أغلب ما روى يتعلق بوضع بغداد أيام تأسيسها أما النصوص التي عثل الفترة المتأخرة فهي قليلة نسبياً ، ولا يستطيع المرء أن يحصل على فكرة واضحة مما كتبه عن تطور خطط بغداد بصورة شاملة

لم يعتمد الخطيب على الكتب المشهورة عندنا كالطبري واليعقوبي ، فلم يشر إلىالاول إلا مرة واحدة (٦٦) أما الثاني فقد نقل عنه نصين دون أن يشير إلى اسمه وعلى كل فان الخطيب استوعب المادة المهمة الموجودة في الطبري ، كما استوعب ما أورده سهراب عن أنهار بغداد ، ولكنه لم يستوعب ما كتبه اليعقوبي عنها ، هذا فضلاً عن أنه أورد نصوصاً من كتب مفقودة لها أهمية كبيرة لأنها غير موجودة فى الكتب المتداولة عندنا وبهذا يكتسب الخطيب أهميته الخاصة من حيث تعريفنا بعلماء أو كتب بحثت خطط بغداد،

ونقله عنها نصوصاً نموذجية لها قيمها الخاصة في دراسة خطط بغداد وان تشابه المادة فى بعض ما ورد مع المادة الموجودة في بعض الكتب كالطبري وابن سرابيون يفيد فى تدقيق طبع هذه الكتب وتصحيحها ، اما المادة الجديدة فتبقى ذات أهمية خاصة لدراسة خطط بغداد تكمل المادة التي قدمها اليعقوبي وخاصة عن وضع المدينة في أوائل عهد تاسيسها

* * *

خصص ابن الفقيه الهمداني لبغداد وخططها اربعين صحيفة (٢٩ ـ ٦٩) من كتابه «البلدان» ، وهذه الصفحات موجودة في مخطوطة محفوظة بمشهد الرضا ويفتقدها المختصر المطبوع من الكتاب وقد بحث الهمداني اشتقاق اسم بغداد وتأسيسها وخططها وخصائصها وسكانها بالتفصيل ؛ وقد ذكر مصادره عن بعض ما نقل ، ولكنه أغفل مصادر كثير مما نقل غير اننا إذا قارنا ما ذكره بما ورد فى الكتب الاخرى نستطيع معرفة كثير من المصادر التي اغفلها ونتمكن من تقييم المعلومات التي أوردها عن بغداد وسنصنف فيما يلي مادته تبعاً لمصادرها وليس تبعاً لتسلسل كتابتها في المخطوطة

١ — لقد أشار بصراحة الى نقله عن احمد بن أبي طاهر نصاً عن مساحة بغداد ، وعن يزدجرد ابن مهمندار في ذم مصر ومقارنتها ببغداد ، وعن أحمد بن الطيب السرخسي عن سعة بغداد وفطنة أهلها

٢ — وأورد في القسم الاخير من كلامه عن بغداد صفحات كثيرة لم يشر إلى مصدره وفيها معلومات لم نستطع معرفة أصولها ، وهى تتناول وصف بغداد وخصائصها وكذلك اشعار في مدح بغداد والشوق اليها ؛ مع ذكر أسماء بعض ناظميها ومنهم الحسن ابن أبي الرعد ، وهرون الرشيد ، وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد ذكر هذه المعلومات بعد النص المنقول عن ابن أبي طاهر ، مما قد يدل على انه نقلها منه

كما أورد كلاماً طويلاً عن مقارنة بغداد بمصر ، وهذا الكلام مذكور بعد النص المنقول عن يزدجرد بن مهمندار مما قد يدل على انه أخذها عن يزدجرد

وبحث أيضاً عن تجارة بغداد مع الشرق الأقصى عن طريق الأبله ، ومع الموصل ، ومع خراسان وأهمية موقعها كعاصمة للدولة

كما بحث في تقدير عدد سكانها مستنبطاً ذلك من طول سورها ، وحماماتها ، وجوامعها، وعدد بيوتها ، وما تستهلكه من دهن للاضاءة ، ومن الفواكه والمخضرات ، والمواد العطارية، واللحوم،والحنطة ، وجباية الجوالي ومسكوكات الدراهم ومعظم هذه المواضيع بحثها يزدجرد بن مهمندار على ما يذكر صاحب كشف الظنون (١/٢٨٨) كما أشرنا الى ذلك من قبل ولعل الهمداني نقلها من يزدجرد رغم انه ينص على ذلك صراحة

٣ — ان مقداراً كبيراً من المعلومات التي أوردها الهمداني عن بغداد يمكن معرفة أصولها عند مقارنتها بما ورد في المصادر الاخرى ، وهذه الأصول هي :

١ — البلاذري : فقد نقل الهمداني كل ما جاء في باب « أمر مدينة السلام » من فتوح البلدان غير ان الهمداني قسم هذه المادة قسمين ، وضع القسم الأول منها (المذكور في ص ٢٩٤ من البلاذري) في أوائل مقاله ؛ ووضع الباقي (المذكور في ص ٢٩٤ — ٢٩٧ من البلاذري) في أواخر مقاله منسوباً الى ابن الكلبي ، الذي يصرح البلاذري بأنه اقتبس هذه المعلومات منه ؛ ويبدو ان الهمداني أخذ من فتوح البلدان أيضاً خبر إغارة المثنى على سوق بغداد

ومع ان الهمداني نقل حرفياً عن البلاذري ، إلا أنه أغفل ما ذكره البلاذري عن الصالحية ، واقطاع كل من سليمان بن مجالد ، والمهلهل ، وسبيل ، كما ان يختلف عن النسخة المتداولة من البلاذري في قراءة بعض الكلمات

ب — نصوص محمد بن خلف وكيع التي أوردها الخطيب البغدادي فى تاريخ بغداد

١ — نقل الهمداني ما رواه الخطيب عن محمد بن خلف وكيع فيما يتعلق بخطط الجانب الشرقي من بغداد ؛ وقد حافظ النقل على المادة المذكورة وترتيب عرضها غير انه حذف ما ذكره وكيع عن قنطرة البردان ، وشارع عبد الصمد ، وخان أبي زياد ؛ وأورد معلومات

اضافية لم يذكرها الخطيب فيما رواه عن وكيع عن شارع الميدان ، ودار الربيع ، وقصر الطين ، وخان وردان ، وبعض أنهار شرقي بغداد ، وتفاصيل اضافية عن طاق اسماء ، وقصر أم حبيب ، وسوق العطش ، ودارو ج ؛ كما أورد عن بيع السويق ببغداد معلومات تختلف عما ذكره الخطيب .

٢ — نقل الهمداني كثيراً من المعلومات التي أوردها الخطيب عن وكيع في فصله عن « محال مدينة السلام وطاقاتها .. » وكثيراً ما كان النقل حرفياً ، غير ان الهمداني لم يتبع نفس التسلسل الذي اتبعه وكيع ، بل قدم بعض النصوص وأخر بعضها ، ولكنه على تسلسل ذكر بعض الاماكن

كما ان الهمداني لم يذكر ما رواه الخطيب عن وكيع حول ربض أبي أيوب الخوزي ومربعة أبي قرة ، وربض ابراهيم بن حميد ، وعبد الملك بن حميد ، وحميد بن ابي الحارث وعمرو بن المهلب ، وابراهيم بن عثمان بن نهيك ، ومنارة حميد الطوسي ، وكثير من المعلومات عن دور الصحابة ، وأبي دلامة ، ودار عمرو بن مسعده ، ودار صالح المسكين ، وأبي يزيد الشروي ، وسكة مهلهل ، وصحراء أبي السرى ، وقطيعة اسحق بن الازرق الشروي ، وقطيعة الربيع ، وقطيعة الانصار ، وقطيعة الكلاب ، وسكك المدينة المدورة ، والزبيدية ، ودور بني نهيك ، ودرب جميل ، ومسجد الانباريين ، والياسرية ، وقطيعة خزيمة ، ودار اسحق بن ابراهيم وكذلك عن ايوان المنصور ، والقبة الخضراء ، ومنفذ المنصور السري ، والموكلون بالأبواب ؛ كما قدم الخطيب تفاصيل أوفى عن الطاقات

وذكر الهمداني معلومات غير موجودة في الخطيب عن ربض الحربية ، والمراوزة ، وعتيك بن هلال ، وابي العباس الطوسي ، ودار البطيخ ، وقطيعة عقبة بن جعفر ، وقصر الوضاح ، والمسجد الكبير ، والقرار ، ومربعة الفضل بن سليمان ، ودرب البخارية ، وربض عمرو بن اسفنديار ، وربض رشيد ، وربض عبد بن حميد ، وقطائع الموالى ، والسرخسية ،

وطاقات الراوندي، ودار عمارة، وربض ابي حنيفة، وقصر هانىء بن بشير، ودويرة مبارك وربض الخوارزمية، وربض سعيد بن حميد بن دعلج، ومنارة الحكم بن ميمون، وبعض التفاصيل عن العباسية، والنوبختية، ودرب الناووس

٣ ـ ب ذكر الهمداني في اول فصله عن بغداد اصل تسميتها، وبحث المنصور عن مكان لانشاء عاصمته، وموقف اهل الكوفة وصفة المدينة المدورة، وابوابها واسوارها، وابعادها، ومخططيها، وحجم اللبن، ومحاولة هدم القصر الابيض، وقصة البطريق والاسواق، وعيوب المدينة المدورة، وبناء الرصافة، وتكاليف البناء، وطالع النجوم، والموكلون بالبناء، والقرى التي كانت في موقع بغداد وهي المباركة والترابية، والخطابية وقرية بنو زراري والوردانية والشرفانية وما ورى، وموضع بركة زلزل، واقطاع الربيع وورثالا، ونهر طابق، وبراثا، ونهر كرخايا

ان هذه المعلومات وردت في الطبري، وفي ما رواه الخطيب عن وكيع بنفس التسلسل تقريباً ومع ان وكيع نقل عن شيوخ الطبري، الا انه لم يشر الى نقله عن الطبري؛ فاذا اعتبرنا ان الطبري ووكيع مصدران مستقلان، فمن الصعب ان نجزم في ايهما اخذ الهمداني

لقد ذكر الهمداني بحث المنصور عن مكان لعاصمته، وافساد اهل الكوفة جند المنصور، ونصيحة خالد البرمكي للمنصور الا يهدم القصر الابيض، وعزق طيلسان الدهقان والخطابية وهي معلومات ذكرها الطبري ولم يذكرها الخطيب فيما نقل عن وكيع غير ان الهمداني ذكر اشتقاق اسم بغداد، وورثالا، وبراثا وكرخايا والترابية كما وردت عند الخطيب وهي غير مذكورة في الطبري؛

اما المعلومات التي عن خصائص المدينة المدورة، وابعادها، وابوابها وواضع تخطيط المسجد الجامع، ووزن اللبن، وقصر البطريق والاسواق وعيوب المدينة المدورة وانشاء الكرخ، وانشاء الرصافة، والتكاليف، والقرى التي كانت في موقع بغداد، ونهر طابق، فهي

موجودة في كلا الكتابين الامر الذي يجعل البت صعباً في تقرير اي المصدرين اعتمده الهمداني.

ومن حيث العموم فان الهمداني اورد كافة ما ذكره الطبري تقريباً ، مع حذف بعض الروايات المتعددة عن الامر الواحد ، وكذلك خبر انحراف قبلة جامع المنصور وسير عيسى بن علي محمولاً ، وثورة ابي زكريا المحتسب، وطريق المنصور السرى ، وتفاصيل تكاليف البناء .

كما ان الهمداني اورد المعلومات التي اوردها الخطيب (وقد ذكر الخطيب بعض القرى التي كانت في موضع بغداد في ص ٢٢) ولكنه اضاف خبر تجار الصين وان اسم مدينة السلام هو الذي يذكر في السكة والاشربة والغلات ، كما اختصر بعض الروايات المتكررة عن بغداد ولما كان وصف الخطيب خطط بغداد مأخوذاً من وكيع فالراجح ان الهمداني نقل عن وكيع الذي ربما اعتمد بدوره على الطبري وادخل مادته فى بحثه ثم اضاف اليه

ونختتم مقالنا هذا بالاشارة الى ما كتبه ابن عقيل عن بغداد في عصره الذي يعقب الخطيب ان نص ابن عقيل نقله صاحب كتاب مناقب بغداد الذي نشره الاستاذ بهجت الاثري . وقد ترجم هذا النص وعلق عليه وحلله الاستاذ جورج مقدسي فى مقالين نشرها في مجلة Arabica سنة ١٩٦٣

صالح أحمد العلي

بسم الله الرحمن الرحيم

نبذة عن :

جابر بن حيان

الدكتور فاضل الطائي

لقد احتلّ اسم ابن حيان مكانة مرموقة بين اسماء من اشتغل بالعلوم - سيما علم الكيمياء - لم يتسنى لغيره الوصول اليها طوال القرون المحصورة بين الثامن والسابع عشر لا في مشرق الارض ولا مغربها ، نظراً لكثرة ما ألف من رسائل وكتب في مواضيع علمية مختلفة وغيرها ، وللمهارة التجريبية التي امتاز بها عن سواه ولا بد لي في هذا المجال ان اتطرق الى مفهوم الكيمياء قديماً وكيف تطور على مر السنين وانتهى الى ما نفهمه في الوقت الحاضر

لقد كانت الكيمياء قديماً صناعة يحرص محترفوها على كتمان سرها باحاطتهم اياها بهالة من الغموض والسحر ولعلّ أول من ابتدأ بالعناية بالكيمياء هم المصريون والعرب والفينيقيون واليهود واليونان والرومان ، وقد اختلف المؤرخون في اصل كلمة « كيميا » فمنهم من يقول بأنها اشتقت من لفظة « شمى » ومعناها الحرق او الارض السوداء ، وقد قَرن البعضُ الارضَ السوداء بمصر حيث عرفت مصر بالارض السوداء قديماً واستطرد بالقول حتى عبر عن الكيمياء بأنها «الصناعة المصرية [1] » ويرى غيرهم ان لفظة الكيمياء قد حوّرت عن اللغة العبرية للفظة « شامان » وتعني السر او الغموض ومهما يكن

الاختلاف في اصل الكلمة واشتقاقها فهو لا يغير من الواقع شيئاً اذ أن مصر اشتهرت بهذه الصناعةقبل غيرهاوكانت الكيمياء علما او صناعة سرية وقفاً على الكهنةوالروحانيين القدماء حتى أن المعامل والمختبرات قــد بنيت داخل المعابد واديرة الكهنة منذ دخول الاسكندرونيين الى مصر

لقد قُصد بالكيمياء قديماً عمل الذهب والفضة بالصناعة كما فصّل ذلك ابن خلدون في مقدمته ، ولكن يظهر لنا مما كتبه الشيخ الرئيس ابن سينا ان الناس كانوا في عهده على رأيين من حيث موضوع الكيمياء ، الواحد عمل الذهب والفضة بالصناعة والثاني صبغ النحاس بصبغ الفضة وصبغ الفضة بصبغ الذهب لا غير ، والظاهر ان فكرة الصبغ لم تكن مألوفة في اوربا لذا فانهم ذهبوا الى ما ذهب اليه ابن خلدون في مقدمته ، الا أن آرثر جون هوبكنز [٢] قد اثبت بالادلة التاريخية والعلمية ان مراد الكيمياويين القدماء كان الصبغ لا التحويل حيث قال « ان اقــدم كتابة لدينا في الكيمياء القرطاس المصري المحفوظ في مدينة ليدن وقد كتب قبل الكتابات المنسوبة الى ديموقريطس وزوسيموس وسنسيوس والوصفات المنسوبة الى ديموقريطس مشمولة بمباحث فلسفية ووصفات زوسيموس وسنسيوس موضوعــة بكلام مبهم يعسر فهمه [*] » ويستطرد الاستاذ هوبكنز فيقول لما قام الامبراطور ديوقلتياتوس امر سنة ٢٩٠ للميلاد بنفي اهل الكيمياء كي لا يغتنوا بصناعهم فيتمكنوا من الخروج عليه »

وهكذا اختلف الناس قديماً في مفهوم الكيمياء فمنهم من آمن بصنع الفضة والذهب من المعادن البخسة ومنهم من ارتضى بتغيير لون النحاس الى لون الفضة والاخيرة الى لون الذهب قال جحى خليفة في كشف الظنون نقلا عن الصفدي ان الناس في علم الكيمياء على طريقتين [٣] فقال كثير ببطلانه منهم الشيخ الرئيس ابن سينا بمقدمات من كتاب

(*) توفي ديموقريطس سنة ٣٥٧ ق م وهو فيلسوف يوناني ويلقب بالفيلسوف الضاحك وزوسيموس مؤرخ يوناني نشأ في النصف الاول من القرن الخامس للميلاد وسنسيوس فيلسوف قيرواني يوناني توفي نحو سنة ٤٣٠ للميلاد

الشفاء [٤] ، والشيخ تقي الدين احمد بن تيمية صنف رسالة في انكاره ، وصنف يعقوب الكندي ايضاً رسالة في ابطاله ، كذلك غيرهم ولكنهم لم يوردوا شيئاً يفيد الظن لامتناعه فضلا عن اليقين وذهب آخرون الى امكانه ، منهم الامام فخر الدين الرازي فانه في المباحث المشرقية عقد فصلا في امكانه ، والشيخ نجم الدين بن البغدادي ردّ على الشيخ ابن تيمية وزيف ما قاله في رسالته ، ومؤيد الدين الطغرائي صنف فيه كتباً منها حقائق الاشهادات وبين اثباته والرد على ابن سينا

وقال الامام شمس الدين محمد بن ابراهيم الانصاري : « اذا اراد المدبر ان يصنع ذهباً نظير ما صنعته الطبيعة من الزئبق والكبريت الطاهرين فيحتاج الى اربعة اشياء ، كمية كل واحد من ذينك الجزئين ، وكيفيته ، ومقدار الحرارة الفاعلة للطبخ ، وزمانه وكل واحد منها عسر التحصيل واما اذا اراد ذلك بأن يدبر دواءً وهو المعبر عنه بالاكسير مثلا ويلقيه على الفضة ليمتزج بها ويستقرُ خالداً فيها ويكسوها لونَ الذهب ورزانته [**] ، فاستخراجُ ذلك بالتجربة يحتاج الى استقرارِ حالِ جميعِ المعدنيات وخواصِها . وان استخراجَه بالقياس فمقدماتُه مجهولة ولا خفاء فى عسرِ ذلك ومشقتِه»

وقد كان جابر بن حيان ممن آمن بتحويل العناصر البخسة الى ذهب ولكنه غالى في ذكاء من يتمكن من الحصول على الاكسير [٥] وقد قال : « على الانسان الطالب لهذا الامر ان يكون ذكياً لأن هذه الصناعة تحتاج الى حجج وبراهين على اثباتها وكونها على غايتها وآنيها وكميها ليكون الداخلُ فيها داخلا على بصيرة من حاله ويقين من امره ليعلم الفصولَ والاثارَ الظاهرة فيكون سلوكه على يقين وعلم قاطع ولا يكون كمن يسلك فى ظلماء ويخبطُ في عشواء فان هذه الصناعة ليست كائنة بالبحث ولا كيف جاء واتفق لكن انما يكون لذي الرأي الصحيح والقياس الواجب والدرس الدايم للعلم الحق الواضح الخ [٦]

وهكذا اتسم الدور الاول للكيمياء بالمحاولات المضنية في صناعة الذهب من العناصر

(**) المقصود بالرزانة هو « الوزن النوعي »

الزهيدة الثمن اضافة الى صبغ المعادن وكسائها بما يشبه الذهب او الفضة وبذلك قد نشطت عملية التعدين وصنع السبائك ، وعرف الكثير عن خواص المعادن ، وقد بدأ اليونانيون القدماء بهذه الفكرة او الصناعة « واعتقد فلاسفتهم بأن المواد على اختلاف انواعها تتألف من اربعة عناصر اساسية هي الماء والهواء والنار والتراب ، وتختلف المادة عن غيرها في احتوائها على نسب متباينة من العناصر الاربعة وكيفية اتحاد بعضها مع البعض الآخر ، وقد آمن بهذا الرأي عددٌ كبير من رجال الفلسفة والكيمياء آنذاك ، وكان حرياً بمن اعتقد بهذه الفكرة ان يحاول صُنعَ الذهب من المعادن الاخرى وذلك بالتحري عن الطرائق التي تؤدي الى تغيير نسب العناصر الاربعة في معدن ما وجعلها على ما هي عليه في الذهب غير أن ارسطو أضاف عنصراً خامساً للعناصر الاربعة التي مر ذكرها ووصف هذا العنصر بأنه اثيريٌّ في طبيعته وربما جاء بهذا العنصر الوهمي بتأثره بالفلسفة الهندية ونقل الفارابي تعليلَ ارسطو في اثبات التحول وهو « ان الفلزات واحدة بالنوع والاختلاف الذي بينها ليس في ماهيتها وانما هو في اعراضها فبعضه في اعراضها الذاتية وبعضها في اعراضها العرضية وكل شيئين من نوع واحد اختلفا بعرض فانه يمكن انتقال واحدٍ منهما الى الآخر فان كان العَرضُ ذاتياً عَسُرَ الانتقال وان كان مفارقا سَهُلَ الانتقال والعسر في هذه الصناعة انما هو لأختلاف اكثر هذه الجواهر في اعراضها الذاتية ويشبه ان يكون الاختلاف الذي بين الذهب والفضة يسيراً جداً »

وقد اعقب هذا الدور دور كانت فيه الكيمياء وقفاً على الامور الطبية فحسب ، وكان غرض رجال الكيمياء تحضير العقاقير والادوية لشفاء المرضى وهكذا نجح بعضهم في تحضير كثير من المركبات ، اضافةً الى ما استخلص منها من النباتات يعتقد البعض بأن هذا الدور قد ابتدأ في اواسط القرن السادس عشر وانتهى في منتصف القرن السابع عشر [٧] ، والحقيقة ان اصحاب هذا الرأي قد استقوا معلوماتهم عن طريق المصادر الغربية للنهضة الاوربية دون الرجوع الى التراث العربي والا فما قولهم في الادوية والعقاقير التي

حضرها كل من ابن سينا والرازي وجابر بن حيان وبلغ الاخير الذروة في النصف الثانى من القرن الثامن [٨،٩] وقد اشتغل جابر في صناعة الذهب وفي تحضير الادوية والعقاقير معاً وأّلف فيها عدداً كبيراً من الكتب ، واوثق المصادر تشير الى انه الّف اكثر من مائة واحد عشر كتاباً [١٠] وقد قيل خمسمائة [١١] وذكر ابن النديم في الفهرست اكثر من هذا العدد [١٢]

ويبدأ الدور الثالث لعلم الكيمياء في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، وابرز ما في هذا الدور نظريةُ الفلوجستون التي تقدم بها بيخر (Becher) عام ١٦٦٧ م رداً على ما أورده جابر بن حيان عام ٧٧٦ م تقريباً ، اذ كتب جابر بأن جميع المواد المشتعلة تحتوي على عنصر الاشتعال ووصف هذا العنصر بأنه صورة من صور الكبريت ، بينما اشار بيخر الى كثير من المواد القابلة للاشتعال والتي تشتعل فعلا دون ان يكون عنصر الكبريت موجوداً فيها واستبدل الكبريت بعنصر موهوم اسماه (Terra Pingins) ثم تلاه شتال (Stahl) (١٦٦٠ ـ ١٧٣١ م) فطور فكرة بيخر واسمى العنصر الموهوم بالفلوجستون والذي يعني في اللغة اليونانية « أنا اشعل النار » وعلى ضوء هذه النظرية يكون تحول المعدن الى ما اسموه بالكالكس (*) (اوكسيد الفلز) نتيجة لفقدان الفلوجستون وقد عُبر عنها بهذه المعادلة البسيطة

معدن — فلوجستون = كالكس

وهكذا اعتقد اصحاب هذه النظرية انه باستطاعهم اعادة الكالكس الى المعدن اذا ما ادخل في الاخير الفلوجستون ولما كان الفحم يحترق بسهولة ولا يترك الا قليلا من الرماد وجب ان يكون الفحم غنياً بالفلوجستون فاذا ما عومل الكالكس بالفحم وسخنا سوية اتحد الكالكس بشيء من فلوجستون الفحم وعاد معدناً الى اصله وبالرغم من الاخطاء الكثيرة والفرضيات الموهومة في هذه النظرية الا انها كانت مفتاحا في التعدين والحصول على الفلزات (المعادن) من اكاسيدها الموجودة في الطبيعة ، وقد اثنى الاستاذ ميلر [١٣]

(*) يعتبر الكالكس في الكيمياء حديثا اوكسيد الفلز ، اذ انه ينتج من تسخين المعدن في الهواء.

على هذه النظرية حيث يقول ما معناه ان السخرية من هذه النظرية او ممن اعتقد بها امر غير عادل اذ انها مثلث اكمل تعميم معروف في زمانها ، وتحت تأثيرها خطت الكيمياء خطوات كبيرة وتقدمت تقدماً محسوساً » ، وعلى كل فقد اخفقت هذه النظرية عند ما تعرضت للتجربة العلمية من حيث الوزن ، كما ان لافوازيه ١٧٧٤ م قد اكتشف صفات الاوكسجين واثبت بأنه ضروري للاشتعال وقد اتضح بعد ذلك بأن المعدن لا يفقد شيئاً عند ما يتحول الى الاوكسيد (الكالكس) ، بل على النقيض من ذلك فانه يتحد بالاوكسجين بنسبة او نسب معينة ، ويزداد وزناً

ويبدأ الدور الرابع لعلم الكيمياء او الكيمياء الحديثة في اواخر القرن الثامن عشر حيث ازداد عدد المركبات الكيمياوية زيادة كبيرة ، وبرز في هذا الدور العالم السويدي شيلي (١٧٤٢ ـ ١٧٨٦ م) الذي اكتشف عنصر الاوكسجين قبل الكيمياوي بريستلي بعامين الا ان تلكؤه في نشر ما وصل اليه قد خص برستلي بشرف اكتشافه وقد اتسم هذا الدور بالتجارب العلمية العملية ، ودراسة خواص المركبات بعد عزلها عن الشوائب وتعيين ثوابتها الطبيعية ولم تمض مدة طويلة على فشل شيلي في الحصول على مركز المكتشف لغاز الاوكسجين حتى باغت معاصريه بسلسلة من المكتشفات وتحضير عدد كبير من المركبات الجديدة ، ومن مختلف الانواع من بينها عنصر الكلور ، وحامض الهيدروكلوريك ، وحامض اللبن (اللاكتيك) والاوكساليك ، وحامض الليمون (الستريك) وغيرها وبالرغم من ان برستلي قد اكتشف الاوكسجين واتصل بالعالم الفرنسي لافوازيه وعرف الكثير عن خواص الاوكسجين وحضر بعض المركبات والاحماض مثل كلوريد الهيدروجين واوكسيد النتريك وحامض النتروز وغاز الامونيا وغيرها الا انه بقي على ايمانه بنظرية الفلوجستون حتى فارق الحياة ولم ينصرم القرن الثامن عشر حتى قام عملاق الكيمياء في ذلك العصر لافوازيه بتحضير عدد هائل من المركبات واكتشف مكونات الهواء ودرس خواص الاوكسجين الكيمياوية وقضى بذلك نهائيا على نظرية الفلوجستون بتجاربه العلمية

التي لا يتطرق اليها الشك ولا يكتنفها الغموض ودرس خواص الغازات دراسة علمية مضبوطة ، واخذ علم الكيمياء يسير بسرعة هائلة بعد هذه المكتشفات وازداد عدد الكيمياويين زيادة مطردة واكتشفت مكونات الذرة وقوانين اتحاد الذرات بعضها بالبعض الآخر في تكوين الجزيئات وبدأت الصناعة الكيمياوية وشيدت المعامل والمختبرات الكثيرة واستمر عهد الكيمياء الحديثة التي تناولت الاتحادات الكيمياوية وبرزت الكيمياء العضوية والتحليلية وغيرها من فروع الكيمياء الا أن جميع هذه التفاعلات تعتمد على النظام الالكتروني للذرات في الاتحاد والتحلل ولا تمس نوى الذرات من قريب او بعيد ، واستمر الحال كذلك حتى عام ١٩١١ م حيث وجدت العلاقة بين الطاقة والمادة وطل عهد الكيمياء النووية

لقد اوجد انشتاين العلاقة بين المادة والطاقة ، بل وعرف ان المادة صورة من صور الطاقة كما في المعادلة الآتية :

ط = م س^{2} (الطاقة = المادة × مربع سرعة الضوء)

حيث يدل (ط) على كمية الطاقة و (م) كمية المادة و (س) سرعة الضوء ، ويتضح من هذه المعادلة البسيطة ان كمية قليلة من المادة تتحول الى كمية هائلة من الطاقة ، وكانت هذه المعادلة مفتاح الطاقة النووية ، ونقطة تحول في نهج الكيمياء اذ أن علم الكيمياء يبحث في دراسة المادة وتركيبها وتحليلها وخواصها وتفاعلاتها وتركيب الذرات والجزيئات دون الالتفات الى الطاقة التي تركت لعلم الفيزياء فحسب ، الا أن التحول الذي حصل في القرن العشرين والنظرة الى المادة باعتبارها صورة من صور الطاقة قد قرب بين علمي الكيمياء والفيزياء بل ان المختص في الكيمياء النووية لا يختلف كثيراً عمن اختص بالفيزياء الذرية وسيضمر الفرق بين علمي الكيمياء والفيزياء على مر الزمن وكلما تقدم العصر الذري الذي نعيش فيه ويمتاز هذا العصر بالنظرة الى نوى الذرات والافادة من الطاقة الهائلة الكامنة فيها ، ويمكننا بحق ان نطلق على هذا الدور لعلم الكيمياء « بالعصر

النووي » هذا واشارك الاشتاذ رايشنباخ [١٤] عندما ذكر في كتابه « الكون والذرة» عام ١٩٢٤ م بأن يسأل الله ان لا يتيح للبشر معرفة طرائق تحول المادة الى طاقة الا بعد ان يصلوا الى مرحلة من الخلق تجعل استخدام الطاقة النوووية الهائلة في مصلحة الانسان وليس لدماره ومن المؤسف ان يبدأ العصر النوووي باستخدام هذه الطاقة في القنابل الذرية اول الامر كما ان مقدار ما تحول من المادة الى طاقة في القنبلتين الذريتين اللتين القيتا على هيروشيما ونكازاكي في اواخر الحرب العالمية الثانية لم يكن الا جزءاً ضئيلا جداً ولو تحول عشر وزن ذينك القنبلتين الى طاقة لكان دمارها اكثر مما عملتا بالمرة على الاقل وعلينا ان نتفاءل من هذا العصر وما سيأتي به من فائدة الى الانسانية رغم بدايته السيئة ، اذ لو استعملت القوة الكهربائية في بدء اكتشافها في الكرسي الكهربائي لنظرنا اليها نظرتنا الى الطاقة النووية

وبعد ان استعرضنا ادوار علم الكيمياء الاربعة كما يصنفها الغربيون واضفنا الدور الخامس « العصر النووي » فعلينا الآن ان نرى اين يقع مكان جابر بن حيان وفي اي دور من الادوار الاربعة الآنفة الذكر ، وقبل الخوض في عباب بحث جابر وعلمه لا بد وأن نتبين حقيقته ونشأته

من هو جابر بن حيان :

تذكر دائرة المعارف البريطانية [١٥] أنه أبو موسى جابر بن حيان ويسود الاعتقاد وفق الادلة على أنه من قبيلة أزد [١٦] القبيلة العربية التي قطنت جنوب الجزيرة العربية واستوطن بعضهم الكوفة بعد أن هدم سد مأرب ، وقد أيدت ذلك دائرة المعارف الاسلامية [١٧] حيث ذكرت بأنه أبو موسى جابر بن حيان الأزدي صاحب كيمياء عربي مشهور واسم أبيه عبد الله الكوفي [١٨] ويذكر ميلر [١٣] عند كتابته عن جابر ان العرب حاذقون في التجارب ، ويشير الاستاذ سارتون [١٩] في كتابه « مقدمة في تاريخ العلم » عند التطرق الى كيمياوي العرب « يظهر إن لجابر بن حيان خبرة تجريبية جيدة في عدد من الحقائق

الـكيمياوية ». وذكرت الموسوعة الدولية[٢٠] أن جابر بن حيان كيمياوي عربي مشهور فى القرن الثامن للميلاد وكتبه ذات التأثير الـكبير الواسع وتعتبر من أول المؤلفات فى المعادن والتي نقلت الى أوربا مثل نظرية تحضير المعادن من عنصري الزئبق والـكبريت ، ووصف لتحضير الحوامض المعـدنية وبقيت هذه الـكتب نصوصاً كيميارية لأجيـال عديدة وهكذا تدل اكثر المصادر على ان جابراً عربي الأصل والثقافة ولم نجد من بين المصادر الموثوقة ما يشير الى انه فارسيّ أو يوناني الأصل [٢١]

ولد جابر بن حيان بن عبد الله الأزدي في مدينـة طوس عام ٧٢١ م وكان والده من أقرباذين الـكوفـة ومن المخلصين للدعوة العباســية فهاجر الى طوس ليكون من دعاة العباسيين هناك فشعر به عمال الدولة الأموية فألقي القبض عليه وحكم عليه بالأعدام أما جابر فقد أرســل الى البلاد العربية وتتلمذ أول الأمر على يد حربي الحميري ثم تأثر بآراء الإمام جعفر الصادق ودرس بعض العلوم الدينية عنه ثم دخل مدخل الصوفيين ومال الى الصوفية ولقب بها لذلك [٢٢] و[٢٣] وكان صديقاً مقرباً للبرامكة الذين تسلموا مناصب وزارية في عهد هارون الرشيد وقد عاصر جعفر بن يحيي البرمكي . وعند ما اغتاظ الرشيد من البرامكة وبطش بهم فرّ جابر بن حيـان الى الـكوفة وعاش متستراً فيها ولم يُعثر على أثر لجابر فى الـكوفة إلا بعد قرنين من وفاته على أثر عمليات بناء فى إحدى مناطق الكوفة المعروفـة بباب دمشق وقـد ذكرت بعض المصادر أنه عاصر المأمون فترة [٢٤] و[٢٥]
ويذهب بعض المؤرخين إلى أن جابر قد قصد جعفر الصادق في كتاباته وليس جعفر البرمكي والحقيقة ان النصوص التي بين أيدينــا تشير إلى أنه أتصل بكليهما وكان يشير إلى الإمام جعفر الصادق بسيدي جعفر[٢٦] وعند ما يذكر جعفر البرمكي أو أباه يحي فيدعوهما بجعفر ويحي[٢٧] و[٢٨] فلقد ذكر جابر فى كتاب الرحمة [٢٩] الإمام جعفر الصادق أكثر من مرة حيث نعته بسيدي جعفر أو كما ذكره في كتاب المقابلة والمماثلة سـيدي جعفر بن محمد عليه السلام[٣٠] ولم يكن جابر بن حيان اسطورة خيالية حتى أنكر وجوده بعض الـكتاب[٣١] .

والحقيقة ان جابر بن حيان قد عاش في الكوفة مدة طويلة بعد مقتل جعفر البرمكي وقد ذكر الجلدكي [٣٢] في نهاية الطلب ان أبا الربيع سليمان بن موسى بن أبي هشام عن أبيه موسى في صدر كتاب (الرحمة) لجابر ، « لما توفي جابر بطوس سنة المائتين من الهجرة وجد هذا الكتاب تحت رأسه » وكتاب الرحمة من بين الكتب القلائل التي ألفها جابر وأجمعت المصادر الغربية والعربية من انها له لابد وان جابر قد تستر بالعيش فى مدن عديدة عرف أهلها أو بعضهم بالعطف على البرامكة وربما عاش فترة طويلة في الكوفة بعد نكبة البرامكة ثم غادرها في أواخر أيام حياته إلى طوس مسقط رأسه حيث وافاه الأجل هناك .

مؤلفاته :

لقد كتب جابر بن حيان كتباً عديدة في مواضيع شتى شأنه في ذلك شأن فلاسفة اليونان ، وقد تأثر بآرائهم وأخذ ببعضها وفند البعض الآخر [٣٣] و [٣٤] فكتب في اللغة والبيان [٣٥] وكتب في السموم والأدوية [٣٦] وفي صناعة الاكسير [٣٧] والطلسمات وصناعة الذهب [٣٨] وفى كثير من العلوم الأخرى وقد نال شهرة كبيرة فى البلاد العربية في القرن الثامن للميلاد ، وعند ما نقلت الكتب العربية الى اللغة اللاتينية وغيرها من اللغات الأوربية إبان القرن الثالث عشر ذاع صيته فى أوربا حتى اعتبره بعض الكتاب المستشرقين اسطورة [٣٩] فأنكروا وجوده أصلاً ومهم من حقق بعض المخطوطات وبدأ بتصنيفها الى ما هي فعلاً من تأليف جابر ومها ما هي ليس له [٤٠] ولعل في مقدمة من أخذ بهذا التحقيق هو الاستاذ روسكا وتلميذه بول كراوس وقد بلغ عدد الكتب التي حملت اسم جابر عليها كمؤلف ما يربو على الخمسمائة [١٢] غير أن المصادر الموثوقة والتي أجمع عليها مؤرخوا العرب والمستشرقون تشير إلى أنه قد ألف مائة واثنتي عشر كتاباً [٤١] وأغلب الظن أن الكتب التي ذكرها ابن النديم في الفهرست لا تعد وعن كونها رسائل أو مقالات حيث تشير المصادر التي بين ايدينا من أن جابر قد وضع كل كتاب فى عدد المقالات . وعلى سبيل المثال ان كتاب الخواص الكبير (مخطوط) يحتوي على إحدى وسبعين رسالة .

ويبدو ان اسم جابر قد سطع منذ القرن الثامن حتى يومنا هذا في الشرق والغرب على السواء إذ قلما تجد كيمياوياً عربياً لم يذكر اسم جابر كمصدر من مصادره الأساسية [٤٢] فنعته الجلدكي في كتابه (البرهان في أسرار علم الميزان) بالأستاذ الكبير جابر كما دعاه علي جلبي بن خسرو الازنيقي في كتابه (درر الأنوار في اسرار الاحجار) [٤٣] بالامام جابر وأشار الدوميلي وغيره من المستشرقين من أن أكثر الكتب العربية قدفقدت ولم يعثر إلا على عدد قليل منها وانما وجدت تراجم عديدة تحمل اسم جابر بن حيان يرجع عهدها الى القرنين الثالث والرابع عشر للميلاد بغية الحصول على ثقة المعنيين بالعلم آنذاك نظراً للشهرة التي اكتسبها جابر بن حيان في الأوساط الغربية ويشير كراوس الى أن أمر إرجاع هذه المخطوطات الى أصلها وتمييز ما يعود منها الى جابر عما يعود لغيره ليس بالأمر العسير حيث ذكر في المجلد الأول من كتابه عن جابر بأنه عني بتثبيت الكتب الجابرية مقسمة إلى طبقات ومرتبة بحسب تعاقبها التأريخي باحثاً في صحتها وقد انتهى الى ان أغلبها منحولة وانها ترجع الى مدرسة من الكيميائيين الشيعيين وضعت حوالي سنة ثلاثمائة للهجرة لأغراض سياسية ثم بين بأن الرسائل التي حملت اسم جابر في تلك الفترة لم تكن كيميائياً فحسب بل تتناول ـ اضافة الى الكيمياء ـ علوماً أخرى كالطب والموسيقى والتنجيم والطلسمات والرياضيات والفلسفة ... الخ وعرض في المجلد الثاني دور (جابر والعلم اليوناني) الفصول الخمسة في المذهب الجابري : الكيمياء وعلم التكوين وعلم الخواص وعلم الميزان وعلم الطبيعة فيتناول كتب جابر في هذه المواضيع ويبرز النقاط الهامة ويجلو الغامض منها ويبين الفروق بينها ثم يصل إلى نتيجة مهمة هي ان المجموعة الجابرية قليلة الشبه بمجموعة كيميائيي اليونان القدماء إذ أنها أكثر اعتماداً على التجربة وأكثر تنظيماً وأقل رمزاً وغموضاً وأعرف بالكيمياء العضوية ووصف المركبات والمواد وصفاً دقيقاً يتناول خواصها وتأثرها بالعوامل الطبيعية كالحراوة والرطوبة وغيرها وقد اعتمد رسكا في كتاباته عن جابر بن حيان على بعض المخطوطات العربية التي وجدت في برلين سيما كتاب السموم [٢٤] ، كما عثر ماكس مايرهوف

على مخطوطات عربية عام ١٩٢٦ في المكتبات الخاصة لنورالدين بك مصطفى وأحمد باشا تيمور فى القاهرة ومن اكثرها أهميــة كتاب الخواص الكبير وكتاب العنصر الأساسي وكلاهما لجابر بن حيان وأشاد الكيمياوي الفرنسي برتلو[٤٤] بخبرة جابر وعلمه في الكيمياء حيث قال « لجابر في الكيمياء ما لأرسطو قبله في المنطق ، فهو أول من استخرج حامض الكبريتيك من الزاج الأزرق ودعاه بزيت الزاج ، وأول من اكتشف الصودا الكاوية ، وأول من اكتشف حامضى النتريك والهيدروكلوريك وعمل من مزيجها ماء الذهب (الماء الملكي) ، وتنسب اليه تحضيرات مركبات أخرى مثل كاربونات البوتاسيوم وكاربونات الصوديوم ، وقد درس خصائص مركبات الزئبق واستحضرها » وتشير المصادر الكثيرة ان لجابر موسوعة في الكتب الكيمياوية وغيرها من العلوم ، ولا أود التطرق إلى ما كتب عن جابر بن حيان وعمن أثنى على عمله أو عمن كتب في تفنيد عمله وبطلانــه إذ ربما ضاق في ذلك مجلد كبير ، لقد أقر اكثر الكتاب العرب والمستشرقين صحة بعض الكتب المنسوبة اليه وفى مقدمها كتاب الخواص الكبير ، وكتاب الخواص وكتاب الرحمة وأحد عشر كتاباً صنفها وحققها ونشرها الأستاذ هولميارد عام ١٩٢٨ في باريس ، وسأعتمد في القول عن جابر على هــذه المصادر فحسب وهي متوفرة لدي ، ولا أخرج عن نطاق محتوياتهـا إلا بعد الاعتماد على بعض المصادر الموثوقة للمحققين المستشرقين أوعن المصادر الأولية نفسها ، وسأحاول ما استطعت أن أضع جابر بن حيان في مكانه الحقيقي ، ضمن الأدوار الخمس التي ذكرتها في مقــدمة البحث ، فلقد حاول بعض المؤرخين ان يضع جابر بن حيــان في الدور الأول فوصف ما جاء به من معرفة علمية لا تعدو كونها مستقاة من العلوم اليونانية القديمة وذهب البعض الآخر في طريق يناقض الأول ، فجعله ممن حضر العدد الكبير من المركبات التي لم يعرف بعضها إلا في مطلع القرن التاسع عشـــر ، وهنالك فريق آخر حاول المقارنة والموازنة في تقييم أعمال جابر بغيــة وضعه في دوره الحقيقي ، غير أن أغلبهم قد أخفق في ذلك نظراً لكثرة ما كتب عنه وتباين وجهات نظر الكتاب السابقين

لقد كتب جابر في صناعـــة الذهب [٤٥] وهو بذلك اشتغل بما كان السائد في الدور الأول ودافع عن رأيه في هذه الصناعة ووضع في ذلك نظرية في تـكوين المعادن حيث قال « ان الأجساد كلها في الجواهر زئبق انعقد بـكبريت المعدن المرتفع اليه في بخار الأرض وانما اختلفت لاختلاف اعراضها ، واختلاف اعراضها لاختلاف نسبها » وسنأتي على شرح هذه النظرية فيما بعد إذ أنها كانت مقبولة حتى ظهرت نظرية الفلوجستون في القرن السابع عشر كما أشرنا سابقاً ثم أن جابر قـد اشتغل في صنع الاكسير وقـد زعم بأنـه قد حصل عليه وشفى الـكثير مـن المرضى بوساطتـــه ، وقد ذكر فى كتابه (كتاب الخواص الـكبير) [٢٧] حيث قال « وكان معي من هذا الاكسير شيء فسقيتها منه حبتين وعادت الى اكمل ما كانت عليـــه في أقل من نصف ساعة زمانية فانـكب يحيى على رجلي مقبلاً لها ... » وقد ألف كتباً عديدة وأذكر ما حقق منها كتاب السموم إذ صنفها إلى أصلها وذكر عدداً كبيراً من السموم المستخرجة من النبات وآخر من الحيوان وثالثاً من الحجر ثم وصف كلا منها ومقدار ما يعطى للمريض وبذلك قد اشترك جابر في الدور الثاني للعلوم وقد أشـــار في كتابيه الخواص الـكبير وكتاب الخواص الى تفاعلات كيمياوية وعمليات فنية منها التقطير والتبلور والتصعيد ودرس خواص المواد دراسة علمية دقيقة كما أنه تعرف على آيون الفضة النشادري المعقد وقد ذكر ذلك في كتاب الخواص الـكبير حيث قال « والفضة اذا شمت رائحة الـكبريت اسودّت فاذا أصابهـا الملح ابيضت وصفت وزاد حسنها ومنها النوشادر » وهذا يدل دلالة واضحة على ذوبان أملاح الفضة في هيدروكسيد الامونيوم لتـــكوينها آيوناً معقداً يذوب فى الماء ، وقد قصد جابر برائحـة الـكبريت — بلا شك — كبريتيد الهيدروجين وتشير المصادر الى انه قـد حصل على زيت الزاج وهو المادة المعروفة بحامض الـكبريتيك في الوقت الحاضر ، من تقطير الزاج الأزرق وقد وصف هذا الحامض بأنه الزيت المذيب وأشار الى ذلك كل من برتيلو [٤٤] وهوداس [٤٦] وقد أنـكره هولميارد [٤٧] حيث عزا ذلك الى مكتشفين آخرين في القرنين الثاني عشـــر

والثالث عشر كما انه استغل الخطأة العلمية التي وقع فيها الدكتور فيليب حتي في كتابه (كتاب تأريخ العرب) حيث أخطأ من الناحية العلمية في تكوين ماء الذهب ولا غرابة في ذلك إذ أن الدكتور حتي مؤرخ وليس كيمياوي (٤٨) وليس من البعيد على من يحضر زيت الزاج (حامض الكبريتيك) وهو في العراق، من ان يحضر حامض النتريك وحامض الهيدروكلوريك سيما وان تحضير هذين الحامضين لا يعدو عن تفاعل زيت الزاج مع ملح الطعام في تحضير حامض الهيدروكلوريك وعن تفاعل الشورة (نترات البوتاسيوم) مع حامض الكبريتيك (زيت الزاج) في تحضير الحامض الآخر وقد ذكرت العراق خاصة لأن الآجر (الطابوق) يؤلف الجزء الكبير من المواد البنائية وتكثر مادة الشورة في البنايات التي تبنى بالآجر وتتعرض للرطوبة وعرفت الشورة منذ زمن بعيد في العراق وربما عرفت في مطلع عهد الدولة العباسية وقد استعملها العامة اخيراً في صنع الألاعيب النارية بعد تصفيها ومزجها مع مسحوق الفحم دون أن يعرفوا تركيبها ولا أظن ان أحداً قد قرأ ما قام به جابر من العمليات الكيميائية ان يستبعد تحضيره لحامض النتريك وذلك بمزج زيت الزاج (حامض الكبريتيك) الذي أقره عدد كبير من المستشرقين مع الشورة اضافة إلى أن الكيميائيين في أوربا لم يبلغوا شأو جابر الا فى مطلع القرن الثامن عشر وربما في نصفه الثاني لذلك لا أرى مانعاً من قبول الفكرة التي تقول ان جابر قد استحضر حامض النتريك والماء الملكي الا انني لم أجد ما يشير الى هذا في النصوص المحققة والموثوقة والمتفق عليها واغلب الظن أن هؤلاء المستشرقين لم يعرفوا طبيعة العراق أو كمية الشورة المتراكمة على جدران المباني التي تتعرض للرطوبة، هذا وسأحاول جاهداً في التفتيش عن مصادر موثوقة أخرى لأظهر صحة ما تقدمت به أو بطلانه ان هذه العمليات الكيمياوية التي ذكرها جابر فى الكتب والمخطوطات المتوافرة لدينا والتي ذكرتها آنفاً تشير دون شك الى براعته في عمليات الكيمياء وابداعه في تصميم الأفران والبوتقات تلك العمليات الكيمياوية والدراسة العلمية المضبوطة التي لم تصل اليها أوربا الا في مطلع القرن الثامن

عشر وهو بذلك يدخل الدور الثالث من العلم

وهكذا نرى جابراً قد أحاط بما ألّفه اليونان من فلسفة ونظرة الى الكون والمادة وفي صناعة الذهب ثم تطرق الى استخراج العقاقير والأدوية والسموم ودرس خواصها وكذلك صمم الاجهزة الكيمياوية ودرس المواد وتفاعلاتها دراسة علمية تكاد توصله إلى مرتبة العلم الحديث

ان النظرية التي أتى بها جابر بن حيان من أن العناصر جميعها تتألف من الزئبق والكبريت الطاهر وتختلف العناصر عن بعضها بنسب اتحاد الزئبق والكبريت ونقاوتها لها أساسها ودلائلها ، وقد مثل جابر تكوين العناصر في باطن الأرض كتكوين الجنين في الرحم حيث أشار الى المدة التي يتفاعل خلالها الزئبق بالكبريت في باطن الأرض ونقاوتها ونسبتها الأمر الذي جعله أن يبتدع الفرن والبودقة ليعيد ما يجري في الطبيعة وقد اشار في أكثر من مصدر على طلبته أن يتبينوا الأمر ولا يتعجلوا ويقتفوا أثر الطبيعة في صناعة الذهب والحقيقة ان هذه النظرية التي اعتبرها مايرهوف مفتاح نظرية الفلوجستون هي أعظم فكراً وأعمق تأملاً من نظرية الفلوجستون التي جاءت بعد نظرية جابر بعشرة قرون تقريباً. فنظرية الفلوجستون تتضمن خروج روح الاشتعال من العنصر عند ما يتحول الى الكالكس (الأوكسيد) اي ان العنصر يخسر روحاً (ولها وزن) عند ما يتحول الى الاوكسيد والدليل واضح على ذلك اذ اعتبر أنصار هذه النظرية ان عنصر الكاربون يحتوي على كمية كبيرة من هذه الروح حيث لايتخلف بعد خروجها إلا قليلا من الرماد وهم بذلك قد أغفلوا بل جهلوا تكوين الغازات مثل غاز ثاني أوكسيد الكاربون والحقيقة ان الكاربون (الفحم) عند احتراقه يزداد وزناً والزيادة كبيرة ولكن الناتج يكون على هيئة غاز ثاني اوكسيد الكاربون ، فكل اثني عشر غراماً من الكاربون يتحد باثنين وثلاثين غراماً من الاوكسجين لتكوين غاز ثاني أوكسيد الكاربون ولو فطن انصار نظرية الفلوجستون الى تكوين الغازات سيما غاز ثاني اوكسيد الكاربون في هذه الحالة لأدركوا

ان هنـــاك زيادة في الوزن ولم ينتبه الفلوجستو نيو ن الى ذلك حتى أدركها الـكيمياوي الفرنسي لافوازيه فأثبت خطأ هـذه النظرية أما جابر فقد اعتبر العناصر كلها مؤلفةً من عنصري الـكبريت والزئبق للأسباب الآتية :

١ — ان جميع العناصر التي عرفت في عهده قد استخرجت من كبريتيداتها بالتحميص أو (بالتشويـه) كما ذكرها هو حيث تنبعث غازات الـكبريت كثاني أوكسيد الـكبريت وغيره اثناء تعدينها

٢ — ان اكثر العناصر التي حضرت في ذلك الوقت قد عدّنت من كبريتيداتها الأمر الذي يدعو المنتبه لهـذه الحقيقة الى الايمـان بوجود الـكبريت في جميع ما استخرج من المعادن آنذاك كما وقد كتب جابر في الـكبريت كثيراً ووصف جميع صوره المعروفة في الوقت الحاضر من الـكبريت الذهبي (زهر الكبريت) والـكبريت العمـود والـكبريت المطاط ... الخ

٣ — ان اعتباره الزئبق من الاساسين الرئيسين في تـكوين المعادن جميعها يرجع الى أن الزئبق يـكون مع اكثر المعادن المعروفة ملاغماً فهو يتحد ببعضها اتحاداً كيمياوياً عن طريق تـكوين (الآصرة المعدنية) والتي لم تعرف إلا في القرن العشرين (٤٩) فيغير من صفات المعـادن نفسها ويظهرها بمظهر آخر إلا انه لا يتحد ببعض المعادن البخسة التي عرفت آنذاك والتي لم يعرف منها سوى الحديد وقد اشار جابر بن حيان الى ذلك في اكثر من موضع في كتابه (كتاب الخواص الـكبير) ونتيجة لما قام به جابر من الدراسـات فقـد تعرف على كثير من مركبات الزئبق كالسـليماني وأوكسيد الزئبق الأحمر ولا أظن ان كيمياوياً يشك في ان نظرية جابر في تـكوين المعادن اكثر عمقاً من نظرية الفلوجستون التي أوضحنـــاها آنفاً ، وبهذا يكون جابر قد وضع قدماً في الدور الأول للعلم وآخر في الدور الرابع له

ولا بدّ لي أن أقول لمن استكثر على جابر تحضير المركبات كالـكحول وحامض الخليك

وزيت الزاج والماء الملكي ان الاستكثار ليس في موضعه هذا وسأواصل البحث في الحصول على مصادر أصيلة لجابر لأتمكن من اثبات ما تقدمت به أو تعديله

وعجبت كثيراً لمن ادعى ان اوربا في القرن الثاني عشر والثالث عشر قد أتت بما لم يأت به جابر بن حيان ، ذلك لأن الكيمياوي الفرنسي برتيلو الذي جاء في أواخر القرن السابع عشر قد اعتمد عليه كثيراً وأثنى على عمله ثناءً عاطراً كما أن اوربا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر لم تكن لتعرف العلوم ومن ضمنها الكيمياء إلا عما نقله العرب من اليونانيين وما أضافوا اليه ولا اتفق مع ما ذهب اليه الدوميلي (٥٠) من أن حامض النتريك وبعض الحوامض المعدنية الاخرى قد عرفها بعض الاوربيين خلال القرنين المذكورين (الثاني عشر والثالث عشر) ولو أنه ذكر ذلك في القرنين السابع عشر والثامن عشر لكان الأمر اكثر وجاهة

على أن ما جاء عن جابر بن حيان بحد ذاته في القرن الحادي عشر والثاني عشر من المخطوطات العربية لا يخلو من كثير من الالتباس حيث تدخلت السياسة والفرق الباطنية في ذلك فمنهم من جعل جابراً بمصاف الأئمة ومنهم من اعتبره تلميذاً روحانياً للامام جعفر الصادق الا ان الكتاب الذي أقره المستشرقون والعرب على حد سواء من أنه لجابر وهو كتاب الرحمة يكفي للرد على التقولات التي ذكرها سابقاً اضافة الى المخطوطة التي حققها المستشرقون وهو كتاب الخواص الكبير والذي لا يدع مجالاً لأحد أن يسبقه في اوربا قبل القرن الثامن عشر

وهناك أدلة كثيرة تشير الى معرفة جابر للميزان المضبوط سيما في صنع العملة الذهبية في عهده وقد علمت من أحد زملائي الذين حصلوا على درجاتهم العلمية في امريكا انه اشتغل على تحليل العملات الذهبية في عصر هارون الرشيد والذي هاله كما كان موضع اعجاب استاذه عند ما وجد ان تلك العملات الذهبية لا يختلف وزن بعضها عن البعض الآخر الا

بما يقل عن واحد بالمائة من المثقال[51] الأمر الذي يدل دلالة واضحة على أن جابر بن حيان قد توصل الى وجدان الميزان التحليلي أو ما يشابهه من حيث الكفاءة في الوزن

بغداد في يوم الاثنين الاول من شهر ذي القعدة لسنة ١٣٨٥ هـ المصادف ٢١ شباط عام ١٩٦٦ م

فاضل الطائي

مصادر البحث

١ — المقتطف ، ج ١ ، مج ٤٤ ، ص ٣٧

٢ — المقتطف ، ج ٣ ، مج ٥٣ ، ص ٢٤٠

٣ — المقتطف ، ج ٢ ، مج ٤١ ، ص ١٠٥

٤ — مجلة الكتاب ، ج ٤ ، مج ١١ ، ص ٤٧٦ :

E O Holmyard & D C. Mandeville, Paris 1927 (p 71 74)

٥ — « مختار رسائل جابر بن حيان » كراوس ، القاهرة ـ ١٩٥٤

٦ — كتاب اسطقس الاس على رأى الفلاسفة ـ جابر بن حيان ـ فشر هولميارد ص ٧٠، باريس ١٩٢٨

٧ — المقتطف ، ج ١ ، مج ٤٤ ، ص ٣٨

٨ — كتاب الخواص الكبير ـ جابر بن حيان (مخطوطة) في مكتبة المتحف العراقي ص ٢٤ ـ ٢٨

٩ — كتاب الخواص لجابر بن حيان (مخطوطة) في مكتبة المتحف العراقي ص ٢٦

١٠ — كتاب الاسطقس لجابر بن حيان الصوفى ص ١١٧ ، مصنفات في علم الكيمياء ـ هولميارد مطبعة باريس ١٩٢٨

١١ — كتاب الصافى :

Das Fuch des Reinen, Katalog der Arabischen Alchemistischen

١٢ — الفهرست لأبن النديم ـ اخبار جابر بن حيان واسماء كثيرة ، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٧

١٣ — الكيمياء غير العضوية الحديثة ، لميلر :

« Mellor's Modern Inorganic Coemistry » ; By parker & Mellor, Longmans, Green and Co , New ed., Sept. 1943, p. 9

١٤ — الذرة والكون : « Atom & Cosmo » by Reichenbach, 1924

١٥ — دائرة المعارف البريطانية :

Encyclopedia Britannica, 14 th ed vol X, p 83, 1929

١٦ — آ) معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ـ عمر رضا كحالة ، الجزء الاول ، ص ١٥ ، المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٤٩

ب) دائرة المعارف الاسلامية ، ج ٢ ، ص ٣٧ (الازد)

١٧ — دائرة المعارف الاسلامية ، ج ٦ ، ص (٢٢٦ ـ ٢٢٨) جابر بن حيان

١٨ — الاعلام ، قاموس تراجم ـ تأليف خيرالدين الزركلي (الطبعة الثانية) ، ج ٢ ، ص ٩٠

١٩ — مقدمة في تاريخ العلم :

An Introduction to theHistory of Science ; George Sarton, vol . 1 . p.521.

٢٠ — الموسوعة الدولية :

Encyclopedia International, vol 7, p 480, 1964

٢١ — المنجد ـ معجم لاعلام الشرق والغرب ، لفردينان توتل مادة (ج) ، ص ١٢٣

٢٢ — آ) كتاب المقابلة والمماثلة لجابر بن حيان الصوفي (مخطوطات المكتبة الالمانية)

Dentsche Slaathebliothik Orientalische Abteilung

ب) جابر بن حيان الصوفي ـ كتاب المقابلة والمماثلة :

Katalog Der Arabischen Alchemistischen Handschoniften Dentschlands ;

Alfred Siggel, vol 11, p 142

٢٣ — الاعلام ، قاموس تراجم تأليف خيرالدين الزركلي ـ الطبعة الثانية ـ الجزء الثاني ص ٩٠ .

٢٤ — دائرة المعارف البريطانية ، ج ١٠ ، الطبعة الرابعة عشرة ، ص ٨٣ .

٢٥ — الاعلام ، خيرالدين الزركلي ، الطبعة الثانية ، الجزء الثاني ، ص ٩١

٢٦ — كتاب الخواص لجابر بن حيان (مخطوط) مكتبة المتحف العراقي ، ص ٢٨

٢٧ — كتاب الخواص الكبير لجابر بن حيان - (مخطوط) - مكتبة المتحف العراقى ص ٢٥ - ٢٦)

٢٨ — كتاب الخواص لجابر بن حيان - (مخطوط) - مكتبة المتحف العراقى ، ص ٤٦)

٢٩ — كتاب الرحمة لجابر بن حيان الصوفي - تحقيق هولميارد ، ص ١٤٧ ، مطبعة باريس ١٩٢٨

٣٠ — كتاب المقابلة والمماثلة - راجع المرجع (٢٢)

٣١ — العلم عند العرب - ألدوميلي ، ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى والدكتور عبدالحليم النجار ص ٩٩ سنة ١٩٦٢

٣٢ — نهاية الطلب - تأليف ايدمر بن علي الجلدكي ، (مخطوط) - مكتبة المتحف العراقى ص ٢٧

٣٣ — كتاب اسطقس الاس الثاني لجابر بن حيان الصوفي - تحقيق هولميارد ، ص ٨١ ، مطبعة باريس ١٩٢٨

٣٤ — كتاب اسطقس الاس الثالث لجابر بن حيان الصوفي - تحقيق هولميارد ، ص ١٢٣ ، مطبعة باريس ١٩٢٨

٣٥ — كتاب البيان لجابر بن حيان الصوفي ، تحقيق هولميارد ، ص ٨ ، مطبعة باريس ١٩٢٨

٣٦ — كتاب السموم لأبي موسى جابر بن حيان الصوفي ، المقتطف ، ج ٣ ، مج ٥٣ ، ص ٤٠

٣٧ - كتاب الخواص الكبير لجابر بن حيان - (مخطوط) - مكتبة المتحف العراقي ص ٢٤)

٣٨ — كتاب الخواص الكبير لجابر بن حيان ـ (مخطوط ـ مكتبة المتحف العراقي ص ٣٨)

٣٩ — العلم عند العرب واثره في تطور العلم العالمي ـ الدوميلي ، ص ٩٩ ـ ١١١

٤٠ — جابر بن حيان :

Paul Kraus, Jabir Ibn Hayyan Contribution Al ' Histoire Des Idees Scientifique Dans I ' Isham, vol 2, 1 59

٤١ — كتاب الرحمة لجابر بن حيان الصوفى ـ تحقيق هولميارد، ص١٤٨ ـ ١٥٧ مطبعة باريس ١٩٢٨

٤٢ — كتاب البرهان فى اسرار علم الميزان ـ ايدمر بن علي الجلدكي (مخطوط) ـ مكتبة المتحف العراقي ، ص ١٤

٤٣ — درر الانوار فى اسرار الاحجار ـ علي جلبي بن خسرو الازنيقي (مخطوط)ـ مكتبة المتحف العراقي ، ص ٧

٤٤ — الكيمياء في القرون الوسطى :

M Berthelot, La Chimie Moyen Age vol 2, paris 1885.

٤٥ — كتاب الايضاح لجابر بن حيان الصوفى ـ تحقيق هولميارد ، ص ٥٤ ـ ٥٨ ، باريس ١٩٢٨

٤٦ — هوداس ، العلم عند العرب ـ الدوميلي ، ص ١٠٦ ، عام ١٩٦٢

٤٧ — العلم عند العرب ـ الدوميلي ، ص ١٠٧ ، عام ١٩٦٢

٤٨ — العلم عند العرب ـ الدوميلي ، ص ١٠٧ ـ ١١١ ، عام ١٩٦٢

٤٩ — طبيعة الاواصر الكيمياوية :

The Nature of the Chemical Bonds ; L pauling 1948, Cornell Univ. press

٥٠ — العلم عند العرب ـ الدوميلي ـ ١٩٦٢ ، ص ١٠٧

٥١ — التركيب الكيمياوي للعملة العربية القديمة

The Chemical Composition of Some Ancient Arabic Coins, Sabri Farroha, E.R. Caley, Bull. of the College of Science, Vol. 8, P 61, 1965,

الشعر والانشاد

الدكتور جميل سعيد

الشعر والنغم :

تحدث علماء العرب عن الشعر ، ورأوا ان اهم ما يميزه عن النثر موسيقاه أو نغمه وعرّفه قدامه [1] : بأنه « قول موزون مقفى يدل على معنى » وشاركه في هذا التعريف غيره [2] واذا نظرنا الى القيد الأخير الذي وضعه قدامة في تعريفه ، وهو اشتراطه أن يدل على معنى ، رأيناه يوحي الينا بخوفه ان يتوهم متوهم ان الشعر إنما هو القول الموزون المقفى ، وإن لم يدل على معنى ويرينا هذا ان الوزن أبرز خصائص الشعر وأوضحها ثم يأتي بعده المعنى ومن هنا قال ابن رشيق في عمدته [3] : « الوزن أعظم اركان الشعر ، وأولاها به خصوصية » وهكذا نراه جعل للوزن المكان الأول والذين رأوا ان النثر لايعدم النغم ، وانّ الموسيقى التي تلحظ في ارتفاع صوت المتكلم او القارئ تارة وانخفاضه اخرى ، وبوقفاته التي تطول حيناً وتقصر حيناً ، ثم في انهاء فقراته ـ في بعض الأحيان ـ بما يحدث جرساً خاصاً يشبه نغم الشعر او قوافيه ... الذين لحظوا هذا لم يستطيعوا ان

---

(١) انظر : نقد الشعر لقدامة ص ١١

(٢) انظر ص ٢٢٩ من كتاب الصاحبي في فقه اللغة

(٣) العمدة ١/١٣٤

ينكروا ان موسيقى النثر هذه لا تسير على نمط معين ، ولا يشترط الالتزام بها على نحو خاص كما هو الشأن في الشعر ثم هي ـ بعد ذلك ـ غير واضحة فيه وضوحها في الشعر وهكذا تراهم ذهبوا الى ان النغم او الوزن الشعري هو اهم ما يميز الشعر وكأن أبا العتاهية الشاعر الزاهد نظر الى هذا النغم ، او هذا الوزن يجري في كلام الناس سليقة وبغير ارادة منهم ، فتوهم ان اكثر الناس يتكلمون بالشعر وهم لايعلمون [1] وقال : « ولو احسنوا تأليفه كانوا شعراء كلهم » رووا أنه رأى ـ وهو في جماعة ـ رجلا يقول لآخر عليه مسح [2] :

يا صاحب المسح تبيع المسحا فقال ابو العتاهية : هذا من ذلك الم تسمعوه يقول :

« يا صاحب المسح تبيع المسحا »

قد قال شعراً وهو لا يعلم ثم قال الرجل : « تعال ان كنت تريد الربح » فقال أبو العتاهية : وقد اجاز المصراع بمصراع آخر وهو لايعلم ، قال له :

« تعال ان كنت تريد الربحا » [3]

ونظرة ابي العتاهية هذه الى الشعر بأنه وزن ، او كلام موزون جعلته يقول : «لوشئت ان اجعل كلامي كله شعراً لفعلت ... » [4] . ويظهر انه تعلق بهذا وجعل له الأهمية الأولى.

ونحن ـ وان كنا لانذهب مذهب أبي العتاهية في هذا ، ولا نقرّه عليه ، نراه في حديثه هذا يجسم لنا الشعر في اخص خصائصه ، وهو النغم . ومعلوم ان نغم الشعر لايتضح ولا يبرز إلا بإنشاده . ومن هنا نستطيع ان نرى اهمية الانشاد ، وشدة التصاقه بالشعر .

ولعلنا نعذر أبا العتاهية ، ومن ذهب مذهبه في الشعر اذا عرفنا ما ذهب اليه بعض المحدثين في الشعر إذ رأوا انه نشأ من صيحات منغّمه كانت قبل ان تُخترع الالفاظ وأن

---

(١) الاغاني طبعة دار الكتب (د ك) ص ٤/٣٩

(٢) المسح : كساء من شعر كثوب الرهبان

(٣) الاغاني د ك ٤/٣٩

(٤) الاغاني د ك ٤/١٣٠

تكون دالة على معانيها قالوا : « ان الشعر لغة الوجدان وإن الانسان شعر بوجدانه قبل ان يفكر بعقله والهمجي الذي عاش قبل التاريخ عارياً يتسلق اشجار الغابات ، يقفز من غصن الى غصن صائحاً : « را را را .. بو بو بو .. » قالوا : « هـذا الانسان هو الواضع الاول لأساس الشعر المنظوم ... » وقالوا : « ومن هـذه الصيحات الاولى صيغت انغام الأناشيد وكانت هذه قبل ان يتقدم الانسان ويبتكر الفاظ اللغة يعبّر بها عن افكاره وحين جاء طور الألفاظ المعبرة عن معان كانت قوالب الشعر وأوزانه قد اعدت ، فانصبت بها الألفاظ المعبرة ، فكان هذا الشعر المنظوم المفهوم المعبر عن معنى ـ بعد أن كان انغاماً أو صيحات يعبر بهـا الانسان عن انفعاله حين يمرح في رقص ، او يهتف في غضب ، أو يتحمس في شجار وخصومـة وعراك ، أو يناغم بها وقع المجاذيف في المـاء ، ووقع اقدام الابل حين يسير معها في الصحراء » [(١)] وهؤلاء الذين يذهبون هذا المذهب في نشأة الشعر وانه من نغم او لحن لا معنى له يجدون سندهم فيما يذهب اليه علماء اللغة الذين يرون ان ادراك الطفل لنغم الكلام وموسيقاه يكون سابقاً لإدراكه لمعانيه في الفاظه المفردة ان الطفل يسمع الأصوات المختلفة فى صغره وينشأ وهو يستطيع التمييز بينها قبل ان يستطيع التمييز بين معانيها ومصادرها وقد يسمع ، وهو صغير ، الانشودة تتكرر على سمعه ، فيحفظها ويرددها عن ظهر قلب من غير ان يفقه لها معنى ويعللون ولع الاطفال بالأناشـيد يرددونها من غير ان يفقهوا معانيها ، الى ان الطفل جزء من نظام الكون العام الذي تبدو كل مظاهره الطبيعية منسجمة ولا غرابة في ان يميل الطفل الى ما هو منسجم من الكلام ، منتظم في مقاطع منغّمة متكررة وهو يميل الى التكرار في حركاته ونشاطه العضلي إنه في مهده أو ارجوحته يحرك يديه ورجليه ، أو يهز رأسه وهو يفعل هذا ويستلذه ويكرره في هزات متقطعة منتظمة [(٢)] ...

وذهب بعضهم الى ان الشعر انفعال نفسي ينفس به المرء عن نفسه ، شأن البكاء ينفس

---

(١) قصة الادب في العالم ١/١١ للاستاذين : احمد امين وزكي نجيب محمود

(٢) موسيقى الشعر للدكتور ابراهيم انيس ص ٧

به عن احزانه ، وشأن الضحك يعبر به عن فرحه وسروره وهو حين يطلق هـذا الشعر او حين ينطلق به لا يهمه من يسمعه منه او من يستمع اليه ولعل الأوائل من العرب جنحوا الى هذا حين عزوا اول قطع الشعر الى آدم ، وقالوا إنه قالها يرثي ابنه هابيل (١)

على ان هناك رأياً آخر في نشأة الشعر يصوره لاينشأ إلا مع الإنشاد ولا يفيض من نفس صاحبه الا منشدا بين مستمعيه وعلى هذا فالشاعر البدائي لاينطق بشعره وحيداً ، وانما يتعاون مع صحبه الذين يستمعون اليه انه لايستطيع ان ينطق بالشعر إلا بين الجماعة المستمعين ..

وطبيعي ان قائله ماكان يكتبه ـ على نحو ما يصنع الشعراء اليوم ـ ولكنه يرتجله وينشده .. ويتزايد فيض الشعر على لسانه كلما ازداد جمهوره اصغاءً اليه ، وذهولا واستمتاعاً بشعره ، وتشجيعاً له على الاستزادة في الانشاد وقد يصل الجمهور الى حالة انفعال تحكي حالة الشاعر المنشد نعم، ان جمهور المستمعين في ايامنا هذه يستطيعون أن يسيطروا على مشاعرهم وان يكبتوا انفعالهم ويستمعوا هادئين، ولا كذلك جمهورالبدائيين حين يستمعون. انهم يطلقون لمشاعرهم العنان ويعاونون شاعرهم ومنشدهم علىالاستزادة (٢)

وننظر في اشعار الامم كلها فنراها مقطعة على نحو يناسب الانشاد فالمنشد للشعر العربي مثلا ـ يحتاج لأن يستعيد النفس بعدكل بيت من أبيات بحوره الطويلة ، وهذا هو السر في ان اوزانالبحور الشعرية عند الأمم عامة لا تزيد على مقدار معيّن من المقاطع؛ ذلك المقدار الذي يظل النفس او الصوت مطاوعاً به لمنشده

وللشعر — كما للموسيقى — الحان خاصة في انشاده تختلف باختلاف الامم ان

(١) قالوا : « رثاه بقوله :

تغيرت البلاد ومن عليها	فوجه الارض مغبر قبيح
تغـير كل ذى طعم وريح	وقل بشاشة الوجه الصبيح
فما لي لا أجود بسكب دمع	وهابيل تضمنـه الضريح »

المسعودى ١/٦٥ ، والطبرى ١/١٤٦

(٢) انظر حديث تومسون عن اهالي ارلندا فيكتاب « الماركسية والشعر » ص ٣٩

الايطاليين مثلاً ينشدون الشعر اللاتيني القديم بغير الطريقة التي ينشدها بها الألمان او الانكليز، وإذ يلاحظ في انشاد الايطاليين ميل الى حفظ الضغط على الأصوات ، يلاحظ الميل الى الاعتماد على المقاطع عند غيرهم [1] وقد سبق اليونان والرومان غيرهم فى استنباط قواعد الإنشاد . على ان قواعدهم هذه ما زالت موضع شك عند الباحثين المحدثين بسبب اختفاء لغتيهما في الحديث واختفاء قواعد الانشاد عندها . ولا كذلك الأمر عند العرب - يقول الأب اغسطس فكيني الفرنسيي : « للشعر العربي إيقاع كلاسيكي تام وهو محكم الوزن دقيق التحديد والتعيين وهذه حقيقة لا تحتمل الشك بيد ان المنشدين لا ييسرون لنا — في الغالب — ظرف سماع ذلك الايقاع وتذوّقه» [2] ويقول البستاني [3] : « .. واما العرب فلم يكن في امة من امم الارض شأن للانشاد ارفع منه عندهم »

والذين يبحثون في اولية الشعر العربي يربطون بين نشأته وبين سير الابل وحدائها [4] ويرى بعضهم ان الانشاد والحداء شيء واحد يرى ابو الفرج وهو يتحدث عن اولية الغناء عند العرب انه كان النصب والحُداء ثم يقول : « وذلك جار مجرى الانشاد » [5] وربما لهذه الصلة التي بينهما قالوا : حدا به اذا عمل فيه شعراً [6] فكأن الشعر عندهم لا يتصور إلا منشداً بصورة الحُداء . يقول المرار الأسدي :

ولو اني حدوت به ارفأنت

نعامته وأبصر ما يقول

وتحدثوا عن الإنشاد وأثره في الناس، كما تحدثوا عن الحداء واثره في الإبل ورأوا ان

---

(١) فن انشاد الشعر العربي ترجمة الاستاذين : الأب اسطيفان سالم الفرنسيي والدكتور اسحق موسى الحسيني ص ٥

(٢) فن انشاد الشعر العربي ص ١٥

(٣) مقدم الالياذة ص ٣٩ .

(٤) تاريخ الادب العربي لجورجي زيدان ١/٦٣

(٥) الاغاني ٩/٣٥٠

(٦) العمدة لابن رشيق ٢/٣١٣ .

الجمل يستخفه الحـداء حتى يرى احماله الثقيلة خفيفة ويبعث فيه الحداء من النشـاط ما يُسكره ويولّهه وأن الجمال تستمع الى صوت الحادي ـ وقـد اعتراها الـكلال وثقلت عليهـا احمالها ـ فتخف في سيرها وتسرع حتى تزعزع عليها احمالها ، وربما اتلفت انفسها من شدة السير وثقل الحمل ، وهي لاتشعر بهذا لفرط ما يعتريها من الحداء وهم يقصون القصص في هذا [١]

ويحدثون عن الإنشاد انه ينسي بعضهم نفسه ويستخفه ، على نحو ما يستخف الحداء الجمال رووا عن عمرو بن هند ـ وكان ملـكاً ـ انه استمع الى الحارث بن حلّزة اليشكري، وهو ينشد قصيدته :

« آذنتنا ببينها اسماء »

رروا قول ابن الـكلبي [٢] : « انشد الحارث عمرو بن هند هذه القصيدة وكان به وضح.. فامر ان يجعل بينه وبينه ستر . وفي رواية سبعة حجب [٣] فلم يزل عمرو يقول : ادنوه ! حتى امر بطرح الستر واقعده قريباً منه ».

وظل للإنشـاد مقامه في الجاهلية ثم في الاسلام وما أكثر ما يحدثنا به الرواة عن عكاظ وعن المربد وعن انشاد الشعر فيها وفي غيرهما ويبدو ان الشعراء كانوا يتخيرون جيد الشعر ينشدونه في هذه الاسواق حين يجتمع الناس فيها لمتاجرة أو لمفاخرة ، أو لتسلية. وسنشير الى هذا في حديثنا

الإنشاد والغناء :

والانشاد وثيق الصلة بالغناء وفي المعاجم العربية نجد لفظة الغناء تطلق على قول الشعر ولا نشك في انهم كانوا لايتصورون الشعر إلا منشداً قالوا : « غنى بالمرأة : ذكرها بشعره

(١) انظر « إحياء علوم الدين » للغزالي ١/٢٧٥

(٢) الاغانى ١١/٤٣

(٣) العمدة ١/٤٤

متغزلاً وغنّى بفلان : مدحه او هجاه[1] وفي الاغاني انّ عمر بن الخطاب بعد أن اطلق الحطيئة من السجن ـ وكان قد حبسه وهم بقطع لسانه ـ قال له : « ياحطيئة كأني بك عند فتى من قريش قد بسط لك نمرقة ـ والنمرقة : الوسادة ـ وكسر لك أخرى وقال : غننا يا حطيئة فطفقت تغنيه بأعراض الناس » قال ابن اسلم : فما انقضت الدنيا حتى رأيت الحطيئة عند عبد الله بن عمر قد بسط له نمرقة وكسر له اخرى وقال : غننا ياحطيئة ، فجعل يغنيه »[2] وما نشك ان الحطيئة كان ينشد وان الانشاد هنا هو الغناء [3] . ويقول ذو الرمة [4] :

احب المكان القفر من اجل انني ... بـه اتغنى باسمها غير معجم

ويبدو ان صلة الانشاد بالغناء وتعلق الناس به هذا التعلق ، هو الذي دعا فريقاً من اهل الورع الى التحرج منه قال الأصمعي : « قيل لسعيد بن المسيب : ها هنا نساك يعيبون انشاد الشعر ! قال : نسكوا نسكاً أعجمياً » [5] وربما كان السبب الذي زهّد هؤلاء في انشاد الشعر انهم نظروا الى ان الثلاثة : الموسيقى والغناء والشعر لا نكاد نجدهم الا متلائمين مجتمعين يقول فارمر : « كانت الموسيقى عند العرب ـ معروفة باللفظ العام وهو الغناء ومعناه الاول الانشاد »[6] ويرى ابو الفرج ان الغناء والانشاد كانا كالشيء الواحد في زمن الخليفة عمر بن الخطاب يقول : « إن الغناء العربي لم يعرف في زمانه، ـ زمن الخليفة عمر ـ الا ما كانت العرب تستعمله من النصب والحداء ، وذلك جار مجرى الانشاد ، الا انه يقع بتطريب وترجيع يسير ، ورفع الصوت » [7] وظلت صلة الغناء بالشعر قائمة ، وظلت الحان الغناء مرتبطة ببحور الشعر ؛ حتى لقد جعلوا لكل غناء او لحن وزناً خاصاً به ، فالنصب غناء

---

(١) القاموس المحيط
(٢) الاغاني ٢/١٨٩
(٣) انظر الاغاني ٢/٣٩٨ ايضاً
(٤) العمدة ٢/٢١٣
(٥) البيان والتبيين للجاحظ ١/٢٠٢
(٦) الموسيقى العربية لفارمر ترجمة الدكتور حسين نصار ص ٦٦
(٧) الاغاني ٩/٢٥٠

الركبان يخرج من أصل الطويل في العروض ، والهزج من الهزج وهكذا ...

ولترى وضوح هذه الصلة وتدرجها ، نورد ما أورده الغزالي في احياء علوم الدين [1] قال : « قال ابن مجاهد لابن داود : ... اي شيء تقول يا أبا بكر في من انشد بيت شعر ، أهو حرام ؟؟ فقال ابن داود : لا قال : فإن كان حسن الصوت حرم عليه انشاده ؟؟ قال : لا قال : فإن انشده وطوله وقصر منه الممدود ومد منه المقصور ، أيحرم عليه ؟ قال : انا لم اقو لشيطان واحد فكيف اقوى لشيطانين ؟؟ »

وصلة الانشاد بالغناء والموسيقى صلة عامة نلحظها عند الامم عامة كان اليونان ينشدون اشعارهم على نغم القيثار ، وكان الألمان يسلكون مسلك اليونان في هذا ، وكان الفرنسيون ينشد منشدهم على نغم شبابة عربية ذات ثلاثة اوتار ، واذا اتعبه الانشاد ظل ينغم حيناً بشبابته بلا انشاد [2] والعرب نجد بينهم المنشدين المغنين ، امثال اسحق الموصلي ، وجحظه البرمكي ولسنا نذهب الى ان الشاعر يجب ان يكون مغنياً أو منشداً ، ولا إلى ان المغني او المنشد يجب ان يكون شاعراً ؛ وذلك لأن لكل منهما ملكة خاصة ، وقد يوهب المرء احداها ويحرم الاخرى. وفي هذه الحالة قد يتصاحب الشاعر والمنشد ، والشاعر والمغني ؛ لان كلا منهما يشعر ان صاحبه مم لما فيه من نقص او عجز ، وسنشير الى هذا في حديثنا عن المنشدين

نقول : هذه المصاحبة ، وهذه الصلة بين الغناء والشعر جعلت المتحدثين عنهما ــ من الناحية الدينية ، والناحية الفنية احياناً ــ لا يستطيعون ان ينفردوا بالحديث عن احدهما دون أن يلحقوا به الآخر يتحدث الامام الغزالي في باب السماع عن الغناء ، فيفيض بالحديث عن الشعر ، وعن روايته ويتحدث الجرجاني عبد القاهر في كتابه «دلائل الاعجاز [3] » مدافعاً عن الشعر فلا يرى بدأ من أن يرد على من زعم انه انما كره الوزن لانه سبب لان يغني به في الشعر

---

(١) الغزالي ، أحياء علوم الدين ٢/٢٧٠

(٢) مقدمة البستاني للالياذة ص : ٣٨

(٣) دلائل الاعجاز ص : ٢

ولهذه الصلة الوثيقة بين الغناء والشعر ، صار المتحدثون اذا تحدثوا عن الشاعر قرنوه بالمغني ؛ فابن رشيق يفاضل بينهما ويتعصب للشاعر في المفاضلة ، وكأنه يرد على من زعم ان انشاد الشاعر واقفاً وغناء المغني قاعداً يحط من قدر الشاعر ويرفع من شأن المغني ، فيقول : « فأما قيامه وجلوس صاحب اللحون فلأن هذا متشوف اليه يحب اسماع من بحضرته اجمعين بغير آلة ولا معين ، ولا يمكنه ذلك الا قائماً أو مشرفاً ، وليدل على نفسه ويعلم انه المتكلم دون غيره » [١]

واذا رأينا الشعر والانشاد والغناء يكونون كالشيء الواحد ، فلا نعجب ان نرى الشاعر والمنشد والمغني يكون واحدا ايضاً ويبدو لنا ان هذه الحرف الثلاث ، او هذه الفنون الثلاث كانت فناً واحداً فى اصلها ونشأتها ، ثم صارت تتفرق عن بعضها وتمايز ، شأنها شأن بعض الحرف والفنون التى كانت مجتمعة ثم تفرقت ، ولكن اصحابها ظلوا يشعرون انهم مترابطون متكاملون ، لا تكمل لاحدهم حرفته الا بمعونة صاحبه وفى تأريخ الشعر العربي نجد الكثير ممن تجمعت فيهم هذه الفنون الثلاثة قالوا عن الاعشى ميمون بن قيس - الذي كان يسمى صناجة العرب - انه كان يغني اشعاره [٢] . وقالوا مثل هذا عن الخنساء [٣] وجحظة كان شاعراً مغنياً معروفاً ويقول أبو الفرج عن حنين : كان شاعراً مغنياً فحلا من فحول المغنين [٤] وكان الدارمي شاعراً مغنياً ثم نسك وترك الغناء وقول الشعر [٥]. وكان ابو النضير من شعراء البصريين ، وكان يغني بالبصرة ، وكان صديقاً لابان اللاحقي ثم تصارما وتهاجيا . وقد جن بالغناء جنوناً ، وفيه يقول ، اسحق شيخ المغنين والشعراء [٦] :

(١) العمدة ص ١

(٢) فارمر ص ٢٩

(٣) فارمر ص ٣٠ والاغاني ١٣/ ١٤٠

(٤) الاغاني ٢/ ٣٤٠

(٥) الاغاني ٣/ ٤٦

(٦) الاغاني ١١/ ٢٨٨

سكتُ عن الغناء فلا أماري بصيراً ، لا ولا غيرَ البصير
مخافةَ ان أجنَّـنَ فيه نفسي كما قـد جُنَّ فيه ابو النضير

وكان ابراهيم بن المهدي شاعراً مغنياً ، وكذلك كانت اخته عليّـه . ولسنا نود ان نكثر من تعداد هؤلاء الشعراء المغنين .. نقول كان المغني والشاعر شخصاً واحداً حتى اذا استقـلّ كل منهما بصنعته ظل المستقل منهما يشعر بحاجته الوثيقة الى صاحبه وقـد يتلازمان كان اعشى همدان شاعراً معروفاً وكان احمد النصبي مغنياً مشهوراً ، وكان اعشى همدان مواخياً ومواصلا له واكثر غنائه فى اشعاره [1] ولما خرج اعشى همدان مع الثائرين مع ابن الأشعث على الحجاج خرج احمد النصبي المغني معه لالفته اياه ، فجعل الاعشى يقول الشعر فى ابن الأشعث يمدحه واحمد يغنيه [2] وصحب الشعراء المغنين ، ولا عجب فالغناء مضمار الشعر [3] ، قال الشاعر :

تغن بالشعر إمّا كنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار

وقد احس الشعراء ان شعرهم يكتسب سحراً وتأثيراً جديداً حين يغنّى به . قال الاصمعي : قلت لبعض الأعراب : انشدني شيئاً من شعرك قال : « كنت اقول الشعر وتركته » فقلت : ولم ذاك ؟ قال : « لاني قلت شعراً وغنى فيه حكم الوادي وسمعته فكاد يذهل عقلي، فآليت الا اقول شعرا » [4] ويحدثون عن جرير انه قدم المدينة فأتاه الشعراء وغيرهم ، وفيهم اشعب ، وحادثوه ساعة وخرجوا وبقي اشعب فقال جرير : اراك قبيح الوجه لئيم الحسب ، ففيم قعودك وقد خرج الناس ؟ فقال له اشعب : إنه لم يدخل عليك احد هو انفع لك مني . قال : وكيف ! ؟ قال : لاني آخذ رقيق شعرك فأزينه بحسن صوتي ... وغناه بشعره :

« يا اخت ناجية السلام عليكم »

---

(١) الاغاني ٦/٦٩
(٢) الاغاني ٦/٤٦
(٣) العمدة ٢/٣١٣ .
(٤) الاغاني ١١/٣٨١

فاستخف جريراً الطرب لغنائه بشعره حتى زحف اليه واعتنقه.[1] وقالوا عن كثير إنه كان يطرب ويرتاح اذا سمع المغني سعيداً الرأس يغني بشعره[2] :

هلا سـألت معالم الاطلال — بالجزع من حرض وهنّ بوالي ؟

سقيا لعزة خُلّتي سقياً لها — اذ نحن بالهضبات من املال

اذ لاتكلمنا ، وكان كلامها — نفلاً نوءمّله من الأنفال

ويحدثون الاحاديث الكثيرة عن الشعراء يغنون باشعارهم فيحدث لهم من الهياج والاثارة ما لا يستطيعون ان يملكوا معه نفوسهم يحدثنا ابو الفرج ان عمر بن ابي ربيعة كان يشق ثيابه لفرط هياجه ساعة يسمع جميلة المغنية تغنيه بشعره ، وكان يعتذر ان يقع هـذا منه اذا سكن الى نفسه ونرى من حرص الشعراء على هذا واشتياقهم اليه انهم يجعلونه امنيتهم التي يتمنونها قال جحظة : حدثنا حماد بن اسحق عن ابيه قال : « قيل لابي العتاهية عند الموت : ما تشتهي ؟ فقال : اشهي ان يجيء مخارق فيضع فمه على اذني ثم يغنيني[3] :

سيعرض عن ذكرى وتنسى مودتي — ويحدث بعدي للخليل خليل

اذا ما انقضت عني من الدهر ليلة — فإن غناء الباكيات قليل !

وشهوة ابي العتاهية هذه هى امنية اعشى بنى سليم ! إنه يحب ان يسمع المغنّي دحمان قبل ان يموت . واليه يقول :

فابلغوه عن الاعشى مقالته — اعشى سليم ابي عمرو سليمانا

قولوا : يقول ابو عمرو لصحبته — ياليت دحمان قبل الموت غنانا[4]

هذه ناحية ، وناحية اخرى هى ان الشعر والشاعر قد يكونان خاملين فيرفع الغناء من امرهما يقول ابو الفرج[5] : « ابراهيم بن سيابه ... من مقاربي شعراء وقته ليست له

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٠٧ (٢) الاغاني ٣/٣١٥

(٣) الاغانى ٤/١٠٩ (٤) الاغانى ٤/٣٢ (٥) الاغانى ١٢/٨٨

نباهة ولا شعر شريف ، وانما كان يميل بمودته ومدحه الى ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق فغنيا في شعره ورفعا منه »

يضاف الى هذا ان الشعر عند العرب ، اصبح ـ من قبيل الاسلام الى قبيل عهدنا هذا ـ حرفةً يحترفها الشعراء يتكسبون بها ، وقد لايكون لبعضهم وسيلة للعيش غيرها ، وعلى هذا فالشاعر يهمه ان يغني المغني اهل الثراء من رجال الدولة بشعره ، وكثيراً ما يثار السؤال في مجلس الغناء عن الشعر والشاعر فيثاب الشاعر بجائزة عليه يقول أبو الفرج في الحديث عن ابن سيّابه ايضاً : « ان ابراهيم الموصليّ وابنه اسحق .. كانا يذكرانه للخلفاء والوزراء ويذكّرانهم به اذا غَنَّيَا في شعره فينفعانه بذلك [1] » وينشد محمد الراوية المعروف بالبيدق، ينشد الرشيد عينّية الشاعر النمري ، فيعجب بها الرشيد ،ويبعث للنمري سبعة آلاف دينار [2]

هـــذه الصحبة التي نراهــا بين الشعراء والمغنين نرى مثيلا لها بل اوثق منها بين الشعراء والمنشدين

الشعراء والمنشدون :

ولئن كان الشعرقد استقلَّ واستغنى عن ان يغنّى به فانه لم يستغن عمن يحسن انشاده ، وكيف والإنشاد يحمل معه الشطر الاكبر من سحره ؛ في انغامه او اوزانه وفي معانيه ؟

لقد بينا اننا لا نستطيع ان نتصور الشعر ـ في بـداية نشأته على الأقل ـ إلا منشداً وذلك ان الكتابة لم تكن قد عرفت بعد ، او لم تكن قد استعملت في تدوين القصائد ، وكان الشاعر ينشد اشعاره وسط جمهور يستمع اليه ، وقد ينشدها على آلة فعل المغنّي ، فالشعر يجري على لسانه نشيداً مرتجلا متدفقاً

ويتحدث الجرجاني ـ صاحب الوساطة ـ عن البحتري ، يطري صنعته الشعرية فيقول: « ثم تأمل كيف تجد نفسك عند انشاده ، وتفقد ما يتداخلك من الارتياح ، ويستخفك

---

(١) الاغاني ٨٨/١٢ (٢) نفس المصدر ١٤٨/١٣ .

من الطرب اذا سمعته [١]». والشعر يكون اكثر تأثيراً في النفوس اذا احسن انشاده ، والى هذا يشير جرير [٢] مهدداً في هجائه لبني طهية اذ يقول :

يا عقب يا ابن سنيع بعد قولكم إن الوثاب لكم عندي بمرصاد

اروو علي وارضوا بي صديقكم واستسمعوا يا بني ميثاء انشادي

والشعراء - في الغالب - يكونون منشدين بارعين وينمي قابلية الانشاد فيهم انهم ينشدون جماهيرهم المستمعين المحبين لسماع الشعر ، ويزيد في هذه القابلية عند الشعراء العرب خاصة انهم كانوا ينشدون الأمراء والولاة والخلفاء مجتمعين في شبه مباراة في الإنشاد يجلس الخليفة او الوالي ويجتمع الشعراء في بابه يهنئون بولاية او عيد او حدث هام ، ثم يأذن لهم فيدخلون المجلس ينشدون بحضرة المستمعين ، ويثابون بمقدار تأثير شعرهم في نفسه

وفي الاغاني ان المهدي جلس للشعراء يوماً ، فاذن لهم وفيهم بشار واشجع وابو العتاهية [٣]

وقد يسمو بعضهم لدرجة لا يرى لنفسه ان يدخل ضمن المتبارين [٤] وقد تمنح لبعضهم الجائزة بغير انشاد فيلح في ان ينشد اظهاراً لمحاسن شعره دخل مسلم بن الوليد ، صريع الغواني ، على الفضل بن سهل ينشده شعره ، فقال له الفضل : ايها الكهل اني اجلك عن الشعر فسل حاجتك ، فقال : بل تستتم اليد عندي بان تسمع .. ثم انشده [٥]

والشعراء - ولا سيما الجاهليون الذين وصلتنا اخبارهم - كانوا يحسنون الانشاد ، والكتب تحدثنا بالعجب عن جودة انشاد بعضهم ، كالذي مر من انشاد الحارث بن حلزة لعمرو بن هند [٦]

---

(١) الوساطة ص : ٢٢ (٢) ديوان جرير ص : ١٤١

(٣) الاغانى ٤/٣٤

(٤) انظر حديث الحسين بن الضحاك مع الواثق في الاغانى ٧/١٩٦

(٥) العمدة ١/٤٥ (٦) الاغانى ٤/٣٤

وكالذي نسمعه عن النابغة وحسان والاعشى والخنساء في انشادهم بسوق عكاظ [1] في الجاهلية وعن غيرهم في الاسلام ، ويمر جرير بسراقة البارقي الشاعر والناس مجتمعون على سراقة وهو ينشد ، فيعجبه ويستحسن نشيده ، فيقف متعجباً متسائلا [2] عنه وينشد البحتري أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري ، قصيدته :

أ أفاق صبٌ من هوى فأفيقا | أو خان عهداً أو أطاع شفيقا

فيسر أبو سعيد ويستخفه الانشاد فيصيح : « أحسنت والله يا فتى وأجدت ! »
ويسمعه أبو تمام ـ وهو ينشد ـ فيهتز من قرنه الى قدمه ، استحساناً له [3] » والشعراء المجيدون في انشادهم لا يرضون أن تصل قصائدهم الى مستمعيها إلا منشدة ، هـذا أبو الطيب المتنبي نقرأ ديوانه فلا نكاد نجد قصيدة فيه الا ويقال في مقدمها : إنه أنشدها عام كذا ، ومناسبة كذا

هؤلاء الشعراء المنشدون قد لايجدون حاجة الىمنشد ، على ان بعض الشعراء كانوا لا يجدون بداً من الاستعانة براوية منشد يقولون عن أبي تمام انه لم يكن يحسن الانشاد وانه امتدح ابا دلف فافتتح ينشد قصيدته المشهورة :

« على مثلها من اربع وملاعب »

وكانت فيه حبسة شديدة ، فصاح صائح من الحاضرين فوقف قالوا: « لعنة الله والملائكة والناس اجمعين! [4] » هذه الحالة وامثالها جعلته يلجأ الى منشد يصاحبه وينشد اشعاره ، يقول الصولي : « ... حدثني عن الرازي ، قال : شهدت ابا تمام وغلام له ينشد ابن ابي دواد [5] :

لقد انست مساوىء كل دهر | محاسن احمـد بن ابي دواد
فما سافرت في الآفاق الا | ومن جدواك راحلتي وزادي

ويقول الصولي أيضاً : انه امتدح المعتصم بسر من رأى بعد فتح عمورية ، فذكره ابن ابي دواد للمعتصم ، فقال له : أليس الذي انشدنا بالمصيصه ـ بلدة بالشام ـ الأجش الصوت!؟ قال : يا أمير المؤمنين إن معه راوية حسن النشيد ، فاذن له ، فأنشده راويته مدحه »

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص : ٣٨٠ (٢) الاغاني طبعة السادس ١٨/ ١٧٠
(٣) الاغاني ١/ ١٧ طالساسي (٤) العمدة ١/ ٢٢١ ط ٢ (٥) اخبار أبي تمام ص ١٤١

وحالة أبي عام هذه رأى فيها الشعراء المناوئون له عيباً يغمزونه به : قال عبد الصمد ابن المعذل يعرض به ، وينسب هذا الى ابي العميثل والى مخلد بن بكار الموصلي ايضاً [١] :

يا نبي الله في الشعر وياعيسى بن مريم انت من احسن خلق الله مالم تتكلم

وتشبه حالة ابي تمام هذه حالة زياد الاعجم ، قالوا : كان جزل الشعر ، وكانت في لسانه عجمة فلقب بالاعجم ؛ لنقصان آلة نطقه عن اقامة الحروف ، فكان ينطق الحاء هاء ، يعبر عن الحمار « بالهمار » وقد لج خصومه الشعراء في هجائه ، على نحو ما فعل خصوم أبي عام متخذين من هذه الهجنة ذريعة لهم في تعييره يقول المغيرة بن حبناء مشيراً إلى هذا :

الـق العصـابة يا زياد فانمــا اخزاك ربي اذا غــدوت ترنم

تهجوالكرام وانت ألأم من مشى حسباً وانت العلج حين تـكلّـم

ويقول ايضاً :

لئيماً ذميماً أعجمياً لســانـه اذا نال دناً لم يبال المـكارما [٢]

وننظر في ديوان الشاعر مهيار الديلمي فنراه يرسل قصائده الى ممدوحيه ، ونرجح انه لم يكن يحسن الانشاد ولذلك كان يفضلها مرسلة مكتوبة اليهم

وفي عصرنا هذا ، كان المرحوم امير الشعراء احمد شوقي ، لايحسن انشاد شعره ، وكان يبعث من ينوب عنه في انشاده ، وقد غمزه بعض خصومه ، على نحو ما غمز أبا عام خصومه وعرضوا به في هذا

عرض به المرحوم عباس محمود العقاد في نقده لمسرحية قمبيز قال العقاد في آخر نقده للمسرحية بعنوان : (شوقي بين يدي قمبيز [٣]) :

قمبيز لـكاهنه سابور :

سابور من هـذا القزم في جانب الهرم

سابور الـكاهن :

مولاي هـذا شــاعر في مصـر يغتاب الامم

(١) الموازنة ص ٥

(٢) كتاب الصناعتين ـ لابى هلال العسكري ص ٨ والاغانى ١٥/٣٨٠

(٣) انظر قمبيز في الميزان ، ص ٧٨ وما بعدها

اضعف من صـــاغ مديحاً في القصيـــد أو شم
وناطق اذا جـــرى حديثـه على القـــلم
لـكنه في صمتـــه ابله او فيه بـــكم

قمبيز :

يا ويله ! جئني بـه اشفيه من داء البكم

هؤلاء الشعراء وأمثالهم كانوا لا يجدون بداً من ان يلجأوا الى المنشدين ـ ومن هنا اصبح الانشاد فناً آخر ، اختصت به طائفة اخرى ، راحت تسير جنباً الى جنب مع طائفة الشعراء

الإنشاد حرفة :

بينا ان الغناء والإنشاد والشعر ، كانوا فناً واحداً او عملا واحداً يقوم به فرد ، وهو الشاعر . وكانت هذه الفنون الثلاثة ملهاة وتسلية للناس ، ثم اخذت تنفرد عن بعضها ، الواحد بعد الآخر . ويبدو لنا ان الغناء هو الذي انفرد او انفرط اولا وابتعد عن الشعر ؛ ذلك لأن المغني يحتاج الى قابلية خاصة تتعلق بالصوت اكثر من تعلقها بالخيال ، وبقى الانشاد والشعر متحدين ، ثم ما لبث المنشد ان اصبح شخصاً آخر قد يكون غير الشاعر وغـــير المغني وهكذا اصبح الإنشاد حرفة مستقلة لها اهلها المتخصصون بها ان المغني يحتـــاج الى الصوت وهو عماده ، وكـذلك امر المنشد وان الصلة لوثيقـة بين الشعر والانشاد حتى لنجد الأوزان الشعرية ، عند الامم كلها لا تزيد مقاطع البيت الواحد منها على قدر معين ، وهو عند العرب ذلك القدر الذي نلحظه في البحور الشعرية غير القصيرة ، كالبحر الطويل والبحر البسيط والبحر الوافر والمنشد في هذه البحور يحتاج الى استعادة النفس حين يبلغ نهاية البيت وقد يحتاج لأن يستريح ويستعيد نفسه وهو ما يزال في وسط البيت وربما كان العرب ـ والجاهليون منهم خاصة ـ اطول من غيرهم نفساً في الإنشاد ؛ لـكثرة مانجده في اشعارهم المنظومة على البحور الطويلة والمنشد يحتاج الى ذاكرة قوية يخزن بها المقدار الهائل من الشعر ثم تـكون له القابلية على ادائه الأداء الحسن وكما اُتخِـذ كلّ من الغناء والشعر حرفة للعيش ، اتخِـذ الإنشاد ايضاً وصارت حرفة الانشاد شائعـة بين اجيـال

شتى من الناس ، واصبح للرواة والمنشدين مكانة يحسدون عليها ومن هنا تعلق بهذه الحرفة اناس لهم علمهم الواسع وذاكرتهم النيرة يحدثنا سقراط وافلاطون وغيرهما عن المنشدين الذين كانوا يتهافتون الى مجتمعات الناس في اثينا وغيرها من مدن اليونان ينشدون ما حفظوه ، من الياذة هوميروس وغيرها وقيام هؤلاء المنشدين بين العامة والخاصة كان من لوازم كلّ احتفال وطني ، وعيد ديني وكانت تقام لهم في اثينا وساقس وتيوس واخمينا ، وفي مدن اخرى غيرها اسواق خاصة يتبارون فيها بانشادهم وتعدّ لهم الجوائز الثمينة يحرزها المبّرز منهم ، ويحرص عليها حرص الفائز على اكليل الغار بعد الانتصار [١] وللفرس حلقات يُستمع فيها الى الإنشاد ، ونقل الكسندر شدزكو [٢] : «ان حفّاظ العجم يتلون من شعر شعرائهم ما لا تكاد تصدّق ان الذاكرة تعيه لكثرته ، فقد يظل المنشد يتغنى باشعار الشاهنامة نهاراً كاملاً » وللقارىء ان يتصور كم من الأبيات يمكن ان تنشد في نهار !

وقد يجنح الواحد منهم الى التخصص في إنشاد شعر لشاعر بعينه ، او الى الإنشاد فى موضوع معين [٣] وتتضح لنا قدرة المنشدين على الإنشاد وعلى وفرة محفوظهم من الشعر اذا نظرنا الى ما اشار اليه هوميروس نفسه اذ انه انطق اوذيس في الاودسة بما يربو على الفين ومئتي بيت نفساً واحداً

ويرى بعضهم ان هؤلاء المنشدين من اليونان كانوا ينتمون الى عشيرة خاصة : وان هذه الفئة قد جعلت الانشاد حرفتها التي يتوارثها الابناء عن الآباء واذا كان هناك ما بعث الى اعتقاد طائفة من نقاد الشعر العربي ، الى ان الشاعرية تختص بقبيلة حيناً ، وبسلالة حيناً ، وان الأب الشاعر قد يولد ابناً شاعراً ــ فاننا نستطيع ان نقول : ان الإنشاد ــ كما رآه البعض ــ [٤] كان حرفة متوارثة شانها شان الشعر [٥]

---

(١) مقدمة الالياذة للبستاني ص ٣٥ ــ ٣٦

(٢) ALEXANDER CHODZKO . Specimens of The Popular poetry of persia , London 1842 p : 13

(٣) الالياذة ٣٥ ــ ٣٦

(٤) الماركسية والشعر ص ٤٦

(٥) انظر الوصف في شعر العراق ص ١١٩ وما بعدها للدكتور رجيل ــ بدطبعة «الهلال» ببغداد سنة ١٩٤٨ .

وفي مقدمة الإلياذة [1] ان الانشاد ، كان وما يزال مهنة العميان . قالوا : وهي تحببهم الى الناس وتجعل لهم مقاماً ذا نفع وكان من شأن هؤلاء التنقل من بلد الى آخر ، فهم يطوفون في بلاد اليونان وجزرها ، وهمهم استظهار ما تسعه اذهانهم من الأشعار القديمة والحديثة وقد يبلغ ما يحفظه الواحد منهم حدّ الغرابة في كثرته وحينما يحلون يجتمع الناس اليهم فياخذون في الانشاد بما ناسب المقام وهم في الغالب يؤثرون الانشاد بين عامة الناس ؛ لان العامة اكثر اقبالاً عليهم واقل تعنتاً في انتقاء المواضيع والمنشدون فئتان ؛ فئة تنشد محفوظها من شعر الشعراء ، وهى الفئة الكبرى وفئة قليلة تنشد من محفوظها ومنظومها وهى ارفع منزلة واعلى جاهاً

اما العرب فمنشدوهم على العكس من هؤلاء ان الفئة التي تنشد شعرها الذي انشأته وحفظته هى الفئة الغالبة الكثيرة اما الفئة التي تنشد شعر غيرها - وهى فئة الرواة والمنشدين الذين لا يقولون الشعر - فقليلة بالقياس الى تلك ولا عجب في هذا اذا تصورنا ان العرب امة شاعرة ؛ حتى لقد ذهب ابن قتيبة الى ان العرب - كلّ العرب - يستطيعون ان ينظموا الشعر ولكن طائفة الشعراء هى تلك الطائفة التي اختصت بنظم الشعر وجعلت منه ديدنها وحرفتها وذهب المعرّي فى « رسالة الغفران » الى قريب من رأى ابن قتيبة هذا ، فبين ان الشعر قرآن ابليس المارد .. وان ابليس اللعين نفثه في اقليم العرب فتعلمه رجال ونساء

قال ابو العلاء على لسان ابن القارح في موقف الحشر : « وانصرفت بأملي الى خازن آخر يقال له زفر... فقلت: رحمك الله كنا في الدار الذاهبة نتقرب الى الرئيس والملك بالبيتين او الثلاثة فنجد عنده ما نحب ، وقد نظمت فيك ما لو جمع لكان ديوانا ، وكأنك ما سمعت لي زجمة - اي كلمة - فقال : ... احسب هذا الذي تجيئني به قرآن ابليس المارد ولا ينفق على الملائكة ، انما هو للجان وعلموه ولد آدم ... فمن اي الامم انت ؟ فقلت : من امة محمد بن

(١) مقدمة الالياذة ص ٣٦

عبدالله بن عبد المطلب فقال : صدقت ، ذلك نبيّ العرب ومن تلك الجهة اتيتني بالقريض لأن ابليس اللعين نفثه فى اقليم العرب فتعلمه نساء ورجال [١] »

على ان العرب وان كان الشعراء ـ في الغالب ـ هم انفسهم المنشدون لاشعارهم ، فاننا لانعدم طائفة المنشدين المحترفين فيهم والمنشدون طائفتـان ايضاً ، احداهما تروى وتحفظ مقداراً كبيراً من الشعر وهى لاتختص بموضوع ولا بشاعر ولا بعصر ، ولعـل خـير من يمثل هذه الفئة حماد وقد شهر بكثرة حفظه حتي لُقّب « بالراوية » وفى كتب الأدب من كثرة محفوظ هذا الراوية ما يدعو الى العجب ، وما لا يكاد يصدّق يسأل الوليد بن يزيد الخليفة ، حماداً الراوية هذا : بم استحققت لقب الراوية هذا ؟ فيقول حماد : اني اروى لـكـل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين او سمعت به قال : فـكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال كثير ! ولـكني انشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة ، سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون الاسلام قالوا : ثم امره بالانشاد ليمتحنه فانشد حتى ضجر الوليد ، فوكل به من يثق بصدقه فانشده الفين وتسع مائة قصيدة للجاهلية [٢]

هذا هو حماد الراوية ، على ان اكثر الرواة كان يختص بشاعر يحفظ شعره وينشده

وكما أن الشعراء يجيد بعضهم في فنون الشعر عامة ، حتى تستوي عنده ، وقد يبرز فيها جميعاً ، وقد يجيد بعضهم في فن واحد منها ، كذلك كان الرواة والمنشدون

يقول ابن سلام : قال اصحاب الاعشى : « هو اكثرهم عروضاً واذهبهم في فنون الشعر .. واكثرهم مدحا وهجـاء ووصفاً كل ذلك عنده ..». ويقول ابو عمرو بن العلاء عنه : « مثله مثل البازي يضرب كبير الطير وصغيره [٣] » وقال ابو الفرج عن الحطيئة : «وهو من فحول الشعراء .. متصرّف في جميع فنون الشعر ؛ من المديح والهجاء والفخر والنسيب .. مجيد فى ذلك اجمع » [٤]

---

(١) الغفران ص ٢٠٦

(٢) انظر حماد الراوية في : « الاعلام » للزركلي ،

(٣) طبقات فحول الشعراء ص ٥٥ (٤) الاغانى ١٥٧/٢

وقال عن البحتري : « وله تصرف حسن في ضروب الشعر ، سوى الهجاء فان بضاعته فيه نزرة وجيده منه قليل »[1]. واذا كان هؤلاء ـ وعددهم ليس بالكثير ـ قد شهروا بضروب الشعر كافة فان الشعراء عادة يختص كل منهم بفن يجيده ، وقد لا يحسن في غيره احسانه فيه كان جرير يقول : « النصراني انعتنا للخمر وامدحنا للملوك .. » ويقول الاخطل : « جرير انسبنا » ويقول مروان بن حفصة [2] :

ذهب الفرزدق بالفخار وانما حلو القريض ومره لجرير

ومن هنا قالوا : « كفاك من الشعراء اربعة : زهير اذا رغب ، والنابغة اذا رهب ، والاعشى اذا طرب ، وعنترة اذا كلب » [3]

وكما كان هؤلاء الشعراء يختص كل منهم بضرب من الشعر يجيده ، كذلك كان الرواة المنشدون إن الواحد منهم يتعلق في الغالب بشاعر يحفظ شعره ، وينشده وكما يحدثنا سقراط عن ايون انه اختص باشعار هوميروس [4] وانه لا يباريه في اجادته لها انسان ، وانه متعلق بهوميروس حتى انه ليتوهم انه لا يستطيع ، او لا يحسن إنشاد اشعار غيره ، بل انه ليحس باسترخاء ونعاس حين يستمع لغير شعر هوميروس واذا ما استمع الى شعر هوميروس تيقظت نفسه واعتراه النشاط والاريحية في انشادها

ان سقراط يحدثنا عن هذا ، وربما كان اكثر الرواة والمنشدين العرب متعلقين بشعرائهم على هذا النحو كان عبيد راوية الفرزدق وكان لجرير راوية اسمه الحسين ،وكان محمد بن سهل راوية الكميت [5] ، وكان ابو السائب بن حكيم راوية كثير عزة ، واليه يقول كثير :

سألت حكيما اين شطت بها النوى فخبرني ما لا احب حكيم [6]

(١) الموازنة ص ٧ (٢) الشعر والشعراء ص ٢٨٧ (٣) العمدة ١/٩٥

(٤) The Dialogues of Plato- Translated by B. JoWETT Fourth Edition P. 105

(٥) مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٣٨

(٦) الاغاني ١٢ / ١٨٩

ونقول: وكما يجيد الشاعر ضرباً من ضروب الشعر فيحسنه فكذلك المنشد، انه قد يجيد ضرباً من الانشاد، وقد تراه ليس شيئاً اذا هو حاد عنه الى غيره كان استاذنا الجليل الاستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ـ المرحوم عبد الوهاب حمودة، ينشدنا اشعار البارودي الحماسية:

وإني امرؤ لولا العوائق اذعنت لسلطانه البدو المغيرة والحضر
من النفر الغرّ الذين سيوفهم لها في حواشي كل داجية فجر
اذا استل منهم سيد غرب سيفه تفزعت الافلاك والتفت الدهر

فتأخذنا روعة الشعر بروعة الانشاد واذكر اننا بعد ذلك درسنا البارودي الشاعر مع استاذنا الجليل المرحوم احمد امين، وانه استشهد بابيات البارودي هذه، فانشدها فلم نره يحمل الينا بانشاده ماكان يحمله الينا الاستاذ حموده من سحر وروعة

على ان الاستاذ احمد امين كان ـ رحمه الله ـ يجيد ضرباً آخر من الانشاد، هو انشاد ذلك الشعر الوجدا ني الحزين ولم يكن بيننا من لا تأخذه روعة الانشاد، وتغشاه سحابة من الحزن، حين كنا نسمعه ينشد وكأنه يناجي نفسه

أليس وعدتني يا قلب أني اذا ما تبت عن ليلى تتوب
فها انا تائب عن حب ليلى فما لك كلما ذكرت تذوب!؟

وكان من المنشدين من برع في الانشاد حتى وازى به الغناء اثراً، يقول ابو الفرج [1]: «وكان انشاد محمد البيدق يطرب كما يطرب الغناء.» والبيدق هذا لقب لقب به لقصره قالوا: وكان ينشد هارون اشعار المحدثين وكان احسن خلق الله انشاداً ويحدث ابو بكر ابن دريد .. انهم استمعوا الى غلام من بني اسد ينشدهم شعر المرار:

سكنوا شُبيثا والأحصّ واصبحوا نزلتْ منازلهم بنو ذُبيان
واذا يقال أُتيتُم لم يبرحوا حتى تقيم الخيلُ سوق طعان

قال: فكادت الارض تسوخ بي لحسن انشاده [2]

(١) الاغاني ١٣ / ١٤٨

(٢) الامالي ١ / ٦٥

ابن الفوطي [1]

المطبوع باسم الحوادث الجامعة ليس لابن الفوطي

الدكتور مصطفى جواد

١٢ — الحوادث الجامعة والتجارب النافعة الواقعة في المائة السابعة ، هكذا أسماه ابن رجب ، كما نقلنا من كتابه ذيل طبقات الحنابلة سابقاً ، قال : « وذكر غير الذهبي أنه جمع الوفيات من سنة ستمائة سماه الحوادث الجامعة والتجارب النافعة الواقعة في المائة السابعة وهذا هو الذي أشار اليه الذهبي » يعني قول الذهبي – وقد نقله قبلاً – : « وكتاب حوادث المائة السابعة والى أن مات » وفي الحق أن حصره بالمائة السابعة وقصره عليها يدفع قول الذهبي « والى أن مات » والذي استمر عليه الى أن مات هو « التاريخ على الحوادث » كما ذكرنا من قبل

وسماه مؤلف كشف الظنون « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة » قال : « لكمال الدين عبدالرزاق بن أحمد المعروف بابن الفوطي البغدادي المتوفى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة » وقال في مادة التاريخ : « تاريخ ابن الفوطيّ متعدد كالذيل على الجامع المختصر لشيخه ابن الساعي ، والحوادث الجامعة فى الوفيات ومجمع الآداب » وكرر ذكر الحوادث الجامعة فى ثبت كتب التاريخ المجرد

وقد وجدنا تاريخاً مخروم الأول مبدأ الباقي منه سنة ٦٢٦ ، ومنتهاه سنة « سبعمائة » من الهجرة في خزانة كتب الأب أنستاس ماري الكرملي وهي خزانة الآباء النصارى الكرمليين

---

(١) تتمة المقالة المنشورة في هذه المجلة « مج ٩ ص ٤٣ – ١٦٤ »

ببغداد التي أهدي اكثر مخطوطاتها العربية الى المتحفة العراقية المعروفة بالمتحف العراقي وهو مخطوط بخط عصري حديث تغلب عليه الركاكة، ثم علمنا أن نسخة الأصل هي في خزانة كتب الأستاذ المحقق أحمد باشا تيمور ـ وكان إذا ذاك حياً ـ وأنه أمر بنسخ نسخة منه فأهداها الى الأب أنستاس المذكور، فانتسخت لنفسي نسخة على المخطوطة التي في خزانة الآباء الكرمليين، وكلمت أحد الكتبيين وهو نعمان الأعظمي الكتبي في أن ينفق على طبعه وأقوم على إخراجه مع تصحيحه والتعليق عليه، فوافق على ذلك، وكان الأستاذ الأديب أحمد حامد آل الصراف قد انتسخ لنفسه نسخةً فأهدى اليّ نسخته، وإذ كانت نسختي قد علقت عليها وأضفت اليها في حواشيها فوائد تاريخية قدمت نسخة الصراف للمطبعة، وكان ناسخها قد تخطى أسطراً من الكتاب لحاجة في صدره، وحسبت أن النسخة المذكورة كاملة فلم أستوف المقابلة بين مخطوطتي والمطبوع فنقصت النسخة المطبوعة عدة جمل في آخر الكتاب، وهي في الصفحة ٤٩٥ ونصها: « وألزم الناس بالقيجور وزاد في قرار التمغات » وهي بعد قوله « ثم ضاعف الخراج كما فعل جمل الدين الدستجردابي »

وسقط من الصفحة ٤٩٤ قول المؤرخ: « وأمر بالزام أهـــل الذمة الغيار فألزموا بذلك مدة شهرين ثم أزيل » وهي بعد قوله: قوله: « وكان ببغداد فأحضر وقتل »

وسقط منها أيضاً قول المؤرخ: « فتخاذلوا عنه » وهي بعد قوله « فأرسل الأمير قتلغ شاه اليهم يهددهم ويخوفهم عاقبة الأمر »

وسقط من الصفحة ٤٩٣ قوله: « من التفاوت فزادت أدعيتهم » بعد قوله: « فتوفر عليهم شيء كثير » وسقط منها قوله: « وكل من يتعلق به من نائب وغـيره » وذلك بعد قوله: « بقتل إخوة نوروز وأهله وأصحابه »

وسقط من الصفحة ٤٩٢ قوله: « وكانت الرعية تسير بينهم ومعهم الأشياء المجلوبة للبيع فلا يأخذ أحد منهم شيئاً إلا ابتياعاً باللطف واللين ورأى الناس من العدل ما أوجب زيادة دعائهم لدوام دولته، فلما دخل بغداد لم ينزل في دار إلا بأجرة وما أزعج أحد من منزله »

وذلك بعد قوله : « ولم يتعرض أحد من العسكر لأهل السواد بما جرت به العادة من رعي الزروع وغير ذلك »

هذا وقد أجلنا الفكر وقلبنا الرأي وأعدنا تصفح هـذا التاريخ مراراً فانتهينا إلى استحالة أن يكون هو « الحوادث الجامعـة » لابن الفوطي ، وانبنت الاستحالة على الامور الآتية :

١ — أنَّ خط ابن الفوطي الباقي المحفوظ في الجزءين المعثور عليها من كتابه «تلخيص معجم الألقاب » وفى الجزء الثاني من كامل ابن الأثير ، وكتاب الأحكام ، وغيرهنّ يخالف خط مؤلف كتاب « الحوادث » المذكور حق المخالفة وكل من الـكتابين ثبت أنه كتب بخط مؤلفه والذي دل على أن كتاب التاريخ المذكور بخط المؤلف هو أنه الصق قصاصة ورق على كل خبر وجد خيراً منه فأحله مكانه

٢ — خفاء ذاتية مؤلف كتاب « الحوادث » بحيث يمكننا عدّه جامعاً لمواده من التواريخ الأخرى سوى إشارات قليلة جداً ، يجوز أن يكون بها المؤلف معاصراً لقسم من الحوادث ، مع ظهور ذاتية ابن الفوطيّ في كتابه « تلخيص معجم الألقاب [٢] » فلم يكن إذن مانع من ظهورها في كتاب التاريخ لوكان هو مؤلفه

٣ — اختلاف أسلوبي المؤلفين في طريقه الاختصاص والنقل والأدلة على ذلك كثيرة جداً

٤ — كون كتاب « الحوادث الجامعة » في الوفيات دون الحوادث كما جاء في ذيل طبقات الحنابلة وكشف الظنون ، مع أن كتاب « الحوادث » المطبوع يتوخى الحوادث قبل الوفيات .

٥ — ذكرُ مؤلف الحوادث مؤرخين اثنين من أساتذة ابن الفوطي ونقله من تواريخهما

(١) الحوادث « ص ٢٥٢ ، ٢٥٨ »

(٢) كقوله : « قلت ورأيت وسمعت وصديقنا ورفيقنا وشيخنا او المحسن البنا ومولانا وحدثنا وروى لنا وأخبرنا وحكى لنا وكتب البنا وأجاز لنا وما أشبه ذلك »

كأنهما غريبان عنه وبعيدان عن عصره.وهما تاج الدين أبوطالب علي بن انجب ابن الساعي وظهير الدين علي بن محمد الكازروني ، مع ان ابن الفوطي يصرح بأسمائهما دائماً في كتبه ، كما نرى في كتاب تلخيص معجم الألقاب

٦ —عدم العاطفة الدينية الاسلامية على فاجعة المسلمين في كتاب « الحوادث » فهو لم يذكر كلمة « شهادة » ولا كلمة « استشهاد » في حادثة استيلاء هولاكو على بغداد سنة ٦٥٦ فما استحق منه كلمة (الشهادة) الخليفة المستعصم بالله ولا ابناه أحمد وعبدالرحمن ولا الأمراء ولا العلماء ولا الأطفال ولا النساء ، وكذلك من قتل بعدهم بسيوف المغول ، مع أن ابن الفوطيّ مع عيشه بين المغول مدة وخدمته لهم يذكر شهداء تلك الوقعة الفظيعة ، والمجزرة البشرية الشنيعة ، بكلمة الشهادة أو الاستشهاد ، وذلك أمر ذو بال

٧ —نقل مؤلف الحوادث عن جماعة لم ينقل عنهم ابن الفوطيّ ، فقد قال في حوادث سنة ٦٧٣ : « وفيها مات العلم [أي علم الدين] الشرمساحي أخو سراج الدين ، المالكيّ وهو مدرس المالكية بالمستنصرية ، قال ابن البديع [١] وفيه يقول شيخنا [٢] :

عليم الخنا لا الدين رأسك للنعل	وليس لغير النعل رأسك بالأهل
فخرت بتدريس ولا فخر لامرىءٍ	بمنصبه إن كان خِلواً من الفضل
وما منصب التدريس إلا غضاضة	إذا ما احتبى فيه نظيرك للجهل
يصيب ولا يدري ويخطي وما درى	كما جاء في تفضيل ذي المنطق الفصل

(١) جاء في تلخيص معجم الألقاب « عفيف الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن جعفر ، يعرف بابن البديع ، البغدادي الفقيه المجلد ، تكريتي الأصل ، كان من فقهاء المستنصرية من الطائفة الحنفية وسمع المشايخ وقرأ عليهم واستفاد منهم وكان أوحد في صناعة التجليد ولذلك كان لايفارق دار الخلافة ، وقرأ على الشيخ رضي الدين الحسن بن محمد الصغاني ، وعلى الصاحب محيي الدين استاذ الدار ابن الجوزي وسمع قاضي القضاة عماد الدين أبا صالح نصر بن عبد الرزاق بن عبد القادر ، وكان يتردد اليه ويجتمع به ، ورأيته كثيراً ، وكأنه كتب لي في الاجازة ، وقتل في الوقعة سنة ست وخمسين [وستمائة] » ، التلخيص ج ٤ ص ٦٦ من نسختي الأولى بخطي » فلعله هو المذكور في الخبر

(٢) قدم مؤلف الحوادث ذكر شيخه على ما جاء في الصفحة ٣٨٢ وهو ابن تجاد

ولو لا سراج الدين قلت مقالة　　　يُسيرها الركبان في الحزن والسهل

وكان أخوه سراج الدين صديقاً لشيخنا ـ رحمهما الله تعالى ـ [1] »

وقال ابن الفوطي في تلخيص معجم الألقاب : « علم الدين أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن ابن عمر الشرمساحي المصري المدرس ، قدم بغداد في خدمة أخيه سراج الدين الى تدريس المستنصرية ، وكانت وفاته سنة ثلاث وسبعين وستمائة ودفن عند أخيه [2] »

٨ — نقل مؤلف الحوادث أخباراً عن غيره أو من كتب التاريخ خاصة بسنين ، كان ابن الفوطي قد سمع بعضها عن كثب وشهد بعضاً ، بحيث لا يحتاج إلى مؤرخ ينقلها عنه ، كقتل فخر الدين مظفر بن الطراح بدار النيابة ببغداد سنة ٦٩٤ ، وقد ذكر مؤلف الحوادث ما نصه « وآخر ما قاله [مظفر بن الطراح] وهو في السجن بدار النيابة ببغداد قبل قتله بأيام ، ووجدت بخطه :

القول فيما مضى من عمرنا هدر　　　فدعه واصبر لما يأتي به القدر [3] »

٩ — ذكر مؤلف الحوادث ذوي فضل وإحسان وشيوخاً وأصحاباً وأصدقاء وزملاء في العمل لابن الفوطي ، ولم يذكر في سيرهم أن له (أي للمؤلف) صلة بهم كائنة ما كانت ، وقد ذكرنا منهم ابن الساعي والكازروني ونذكر منهم الخواجة نصير الدين الطوسي ، وكان له الفضل الأعظم على ابن الفوطي في السعي على خلاصه من الأسر وتعليمه وترتيبه في خزانة كتب الرصد ، وكذلك كان أبناؤه الثلاثة له ، ومؤلف « الحوادث » يذكر من يذكر منهم وكأنهم من رجال التاريخ حسب ، ولا صلة له بهم ، فاقرأ قوله في حوادث سنة ٦٥٨ قوله : « وفيها وضع نصير الدين الطوسي الرصد بمراغة وعين فيه جماعة يتولون عمله الى أن انتجز سنة اثنتين وسبعين [وستمائة] [4] » وقوله فيها : « حكي أن السلطان لما كان بوطاة حران وقف له جمع من الفقراء القلندرية فقال لنصير الدين الطوسي [5] ... » وقوله في

(١) كتاب الحوادث « ص ٣٨٣ »

(٢) التلخيص « ٤ : ٧٥ من نسختي الأولى بخطي

(٣) الحوادث « ص ٤٨٥ »

(٤) الحوادث « ص ٣٤١ »　　(٥) المذكور « ص ٣٤٣ »

حوادث سنة ٦٦١ « خيمة بها صاحب الديوان علاء الدين وخواجه نصير الدين الطوسي [١] ... » وقال في حوادث سنة ٦٦٨ : « قيل إن خواجه نصير الدين الطوسي اجتمع [٢] ... » وفى حوادث سنة ٦٧٢ : « فيها وصل السلطان أباقا خان الى بغداد وفي خدمته الأمراء والعساكر وخواجة نصيرالدين الطوسي ... وأما خواجة نصيرالدين الطوسي فانه أقام ببغداد وتصفح أحوال الوقوف وأدر أخباز الفقهاء والمدرسين والصوفية وأطلق المشاهرات وقرر القواعد في الوقف وأصلحها بعد اختلالها [٣] » ثم قال في حوادثها » : « وتوفي ... خواجه نصيرالدين أبو جعفر محمد بن الطوسي في ثامن عشر ذي الحجة ودفن في مشهد موسى بن جعفر [٤] ... » وذكره في غير المواضع التي ذكرناها ، ولم يصحب ذكره لفظاً من ألفاظ الاحترام والتعظيم أو الأستاذية وما يجري مجراها مع أن ابن الفوطي لايجرد اسمه من « السعيد » أو « المولى » أو غير ذلك كمولانا [٥]

وذكر مؤلف الحوادث في وفيات سنة ٦٧٢ أيضاً عالماً ممن عرفهم ابن الفوطي قال : « وفيها توفي الشيخ كمال الدين علي بن وضاح الشهرابابي الحنبلي مدرس المجاهدية ودفن تحت أقدام الامام أحمد بن حنبل ـ رحمهما الله ـ وكان شيخاً صالحاً زاهداً ورعاً عارفاً بالمذهب والأحاديث النبوية وله تصانيف كثيرة ، كان مولده سنة تسعين وخمسمائة [٦] »

وذكره ابن الفوطي قال : « كمال الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن وضاح الشهرابابي ثم البغدادي الفقيه المحدث المدرس ، ذكره شيخنا ظهير الدين علي بن محمد بن الكازروني في تاريخه وقال : كان شيخاً منور الوجه ، كيساً طيباً الاخلاق ، عارفاً بمذهب الامام أحمد ، وبالأحاديث النبوية [٧] ... كان مولده في رجب سنة تسعين وخمسمائة. وتوفي

---

(١) المذكور « ص ٣٥١ »

(٢) المذكور « ص ٣٦٥ »

(٣) المذكور « ص ٣٧٧ »

(٤) المذكور « ص ٣٨٠ »

(٥) قال في ترجمة عماد الدين الابهري : « ولما توجه مولانا السعيد نصير الدين الى بغداد »

(٦) المذكور « ص ٣٠٦ »

(٧) قال : « ومن تصانيفه الدليل الواضح الى اقتفاء نهج السلف الصالح ، وكتاب الرد على أهل الالحاد وكتاب مدح العلماء وذم الحكماء ».

يوم الجمعة ثالث صفر سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، اجتمع له عالم لايحصى وشدّ تابوته بالحبال وحمل على الأنامل الى مقبرة الامام أحمد ودفن تجاه قبره ، قلت : ولي منه إجازة ، وكان صديق والدي وقد رأيته قبيل الواقعة وترددت اليه في خدمة والدي - رح - وكتب الكثير بخطه الرائق من الكتب المطولة والمختصرة [8]» فهل من حاجة لبيان البون البعيد بين الترجمتين وهو واضح مبين ؟ فانذاتية ابن الفوطي ظاهرة في ترجمته لابن وضاح وذاتية مؤلف الحوادث خافية ، وكذلك القول في ذكر ابن الفوطي لعماد الدين الحسن بن محمد الأبهري المعروف بالزمهرير[2] ، قال : « عماد الدين أبو علي الحسن بن محمد بن الأبهري يعرف بالزمهرير شيخ رباط الخلاطية ، كان ببغداد لما وقعت الواقعة ، وجرى ما جرى وحصل في جملة الأسرى من أصحاب أولجاي خاتون ، وأقام عندهم مديدة وقرر في أذهانهم أنه من أولاد المشايخ والصوفية ولما توجه مولانا السعيد نصير الدين الى بغداد تشفع وتضرع الى الخاتون وأصحابها في أن توليه مشيخة رباط الخلاطية ، فسأل نصير الدين ذلك فكتب بما أراده ونزل في خدمته سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، ورتب شيخاً بالرباط وكتب له التمغا فكان يعلقها فوق رأسه إذا جلس فوق سجادته ، وكان بارد اللهجة فسمي الزمهرير ، ولم يتمّ أمره ، وعاد الرباط الى شيخه شيخنا شمس الدين اليزدي والحمد لله ، وتوفي الزمهرير سنة ثمان [وسبعين وستمائة [3]] وسألته [عن مولده فقال ...] »

ثم ترجمه ابن الفوطي باسم « محمد بن الحسن » قال : « عماد الدين محمد بن الحسن بن أحمد الأبهري ، يعرف بالزمهرير ، شيخ رباط الخلاطية ، قدم بغداد في صحبته مولانا نصير الدين أبي جعفر الطوسي وأحضر فرماناً من بعض الخواتين بتوليته رباط الخلاطية ، فلم يجد بداً من ذلك ورتبه شيخاً بالخلاطية سنة اثنتين وسبعين وستمائة ، وكان يلقب بالزمهرير ، وعزل الشيخ شمس الدين محمد بن سعد اليزدي ، واتفق بعد ذلك أن رتب الشيخ

(١) تلخيص معجم الألقاب « ج ٥ الترجمة ٤٦١ من الكاف .
(٢) تلخيص معجم الألقاب « ٤ : ٩٩ ، ١١٩ »
(٣) قدرت وفاته بذلك من قول المؤرخ « ولم يتم أمره »

محيي الدين عبد القاهر بن السهروردي في مشيخة الخلاطية وحضره الأئمة والأكابر، فقرأ الامام تاج الدين حسين إمام الحنابلة : لايرون فيها شمساً ولا زمهريرا [١] »

فتأمل اضطراب كتابة ابن الفوطي ونسيانه أنه قد ترجم الرجل قبلاً باسم « الحسن بن محمد » وأن شمس الدين بن اليزدي تولى الرباط ثانية قبل محيي الدين بن السهروردي، ودونك ما قال مؤلف كتاب « الحوادث » في أخبار سنة ٦٧٢ :

« وفيها أحضر عماد الدين محمد بن حسن الأبهري المعروف بالزمهرير، تقدم بعض الخواتين [٢] إلى خواجة نصيرالدين الطوسي [٣] بمشيخة رباط الخلاطية، فرتبه عوضاً عن شمس الدين بن اليزدي، وكان شيخاً لم يخالط الصوفية، ولا عرف قواعدهم ولا تأدب بآدابهم، وكان الناس يولعون به فقال له يوماً شمس الدين الكوفي الواعظ : أنت وأنا لا نرى في الجنة فتأثر لذلك واغتاظ منه فقال له إن الله تعالى يقول : لايرون فيها شمساً ولا زمهريراً ولم يزل شيخاً بالرباط الى سنة سبع وسبعين [وستمائة] ثم سافر وأعيد ابن اليزدي الى الرباط [٤] »

هذا آخر ما أردنا نشره من ترجمة ابن الفوطيّ، وقد نشرنا موجز ترجمته في أول ما بقي من الجزء الرابع من كتابه البارع « تلخيص مجمع الآداب » وهو الذي حققناه لوزارة الثقافة والارشاد في الجمهورية العربية السورية ونشرته بنفقاتها للعالم العربي في أربعة أقسام والله تعالى الموفق للصواب

مصطفى جواد

---

(١) تلخيص معجم الالقاب « ٤ : ١١٩ »
(٢) في المطبوع – ص ٣٨١ – « الخواقين » بدلا من « الخواتين » وهو من غلط الطبع
(٣) قابل هذا القول بقول ابن الفوطي « ولما توجه مولانا السعيد نصيرالدين « وقوله » قدم بغداد في صحبة مولانا نصير الدين أبي جعفر الطوسي » ، لتعلم ما ذكرناه من اختلاف المؤلفين علماً يقينياً
(٤) الحوادث « ص ٣٨١ »

« فهرس المجلد الرابع عشر »

من مجلة المجمع العلمي العراقي

